كلاديس مطر

نبي دمشق

(رواية)

» اسم الكتاب: **نبي دمشق.**
» اسم المؤلفة: **كلاديس مطر.**
» الترقيم الدولي: ISBN: **978-9933-567-73-6**
» الناشر: **دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.**
هاتـــف: 00963115637060
» سنة الطباعة: **2024.**

جميع الحقوق محفوظة لدار عقل

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة
واتساب وتلغرام: 00963932832010
aklpublishing@gmail.com

الثقافة الروسية لإدارة المكتبات
واتساب وتلغرام: 00201060253858
russianculture.egypt@gmail.com

دمشـــــق - القـــاهـــرة

الأول من نيسان، الآن،

الطير المسافر، المحلق فوق سقف المدينة، يتوازن فاردًا جناحيه الطموحين باعتزاز كبير، بينما كانت تصل إليه رائحة الخزامى وأزهار البابونج التي ترصع حقول مدينة اللاذقية ومحيطها في هذا الشهر الجليل من العام. لقد التقطت عيني حركة صدره عندما مرّ فوق الآثار الأوغاريتية[1] الباقية حيث أقف في هذه اللحظة، التقطتها عيني الحاقدة، الحزينة والمترقبة التي ترى، ولا تتلصص، عيني التي تتطلع مباشرة إلى الذي أمامها وحولها وفوقها وتحتها، عيني التي تحس، وتتضغط على ذاتها كثيرًا من شدة الإحساس بالمرارة والحب والحنين والشغف الذي يهز الروح مثل كرباج صاعق فوق ظهر مظلوم.

إنه نفس الطير الذي كان يمرّ من هنا منذ أن بدأت الخليقة. إنه بذاته، يخفق صدره كلّما مرّ بانسيابية على حقول الخزامى منتعشًا من نسائم البحر التي تهب من مكان قريب جدًا فتجعل المزيد من الحجارة السريانية الباقية على قيد الحياة تتآكل بفعل ملوحتها، وتاريخ طويل من سفك الدماء والحب المعذب. وفي

---

(1) الآثار الأوغاريتية: وهي الآثار الباقية لمدينة أوغاريت القديمة (الألف الثانية قبل الميلاد) التي تقع فوق تل رأس شمرة الذي يبعد 6 أميال (10كم) شمال اللاذقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط. تم اكتشاف أطلالها، على بعد حوالي نصف ميل من الشاطئ، لأول مرة بواسطة محراث أحد الفلاحين في خليج البياض. بدأت الحفريات في عام 1929 من قبل بعثة أثرية فرنسية تحت إشراف كلود شيفر.

كل مرة، كان صراع روحي عنيف يخفق في أحشائه أن "ابق ها هنا، ولا تكمل الطريق، اهبط على تلك الأرض المقدسة وأرح جناحيك، فليس هناك بعد هذا الأفق من أرض تجري فيها أنهار هواك العنيدة! ابق ها هنا فلقد وصلت إلى نهاية مطافك". لكنه، مدفوعًا بحس الطيش واللهو يكمل منطلقًا إلى الأفق البعيد لعل وعسى! فهذه الهواجس التي تأتي، وتروح مثل بيرق رفيع رقيق في مهب الهواء، لا يعول عليها، بينما العين الجامحة الطموحة ترصد بشغف ما "هناك". يا لهذا الـ"هناك" الذي غدا مع التحليق وزمن الطيران الطويل، وكأنه كل الغاية. إن الإشارة الربانية التي أتت على شكل خفقان في الأحشاء في توقيت ومكان بعينهما قد تم إهمالها من أجل وهم لا يُرى بالعين المجردة، وهم يجب أن تخفق الأجنحة بقوة من أجله قبل أن يحط القلب في مكان هواه.

* * *

هبت نسمة ناعمة جعلت أزهار شقائق النعمان الحمراء القانية التي نبتت بين الآثار الحجرية لمدينة أوغاريت الأثرية المتداعية تميل، وتموج مثل راقصات البالية الرقيقات. في ذلك اليوم، بينما كنت أقف على أعلى تلة في المدينة العتيقة، على كتفي يشمخ تاريخي السرياني العريق، أتطلع إلى بقايا واحدة من أقدم مدن التاريخ، سرت رجفة قوية في جسدي كله، وخفق صدري مثل طير مسافر، وأصابني تنميل طفيف في جمجمتي مثل سُكر وصل إلى حده. كأنني فقدت إحساسي باللحظة الحاضرة؛ تلاشى وعيي، وتداعى تماسكه، ثم غبت، وما هي إلا لحظات قليلة حتى وجدت نفسي أتمايل فوق عربة

صغيرة تشبه علبة من دون غطاء على سكة قطار طويل بلا بداية أو نهاية. لقد صبغت تلك الزهرات السريعات العطب الأفق حولي، فتحول إلى غروب محمرّ بينما أخذت العربة تهرول بسرعة فوق سكتها. لا بد أنني سافرت عبر الزمن، عبرته مثل شهاب، وأخذت أتفرج عليه كشريط متحرك بكامل الأبعاد. لقد شعرت، وكأنني متربعة تمامًا فوق خطي الزمني الخاص، بينما كانت عربتي التي بدت وكأن عجلاتها قد زيتت للتو، تكرج بي إلى الأمام وإلى الوراء بيسر كبير من دون أن تجعلني أقفز منها.

عاد وعيي بكامل طاقته، وأنا أتأرجح فوق هذه السكة الزمنية العجيبة، وعي بـ"الآن"، الذي اخترقت به كسيف مسنون الماضي، وكأن الزمن الذي أعاينه كان بطبقتين متحركتين في الوقت نفسه.

وبدا لي، وكأنني أرى بأم عيني، أنا (إثراء بهنام)، مُدرسة التاريخ في إحدى ثانويات مدينة اللاذقية، وذلك عندما كانت العربة تتحرك بي إلى الوراء، النساء والرجال الذين كنتهم فيما مضى، لدرجة كدت ألمس بأطراف أصابعي هذه العوالم التي كانت تتوالى أمامي، وكأني جيبٌ خفيٌّ رقيقٌ مختبئ بين الحقيقة والخيال. لقد رأيت مشاهد كاملة لأفراد يتحدثون حولي من دون توقف، وأصوات لحشود تتحرك بصخب وفوضى، وكذلك لحروب كنت فيها القاتل والقتيل. رطنت بلغات كثيرة، كما تبدلت فوق جسدي أزياء وثياب أثنية وفلكلورية كثيرة! الآن، بدأت أفهم هوسي بأقمشة الساري الحريرية الناعمة وهذه المجوهرات الاحتفالية التي تخلب لبي والتي ما إن تلف عنق امرأة حتى تتحول إلى ملكة بقدرة قادر. الآن أفهم هذه الألفة التي أشعر

بها تجاه الطعام الصيني الذي لم تحضره مرة واحدة والدتي في مطبخ بيتنا في شارع الكورنيش المحاذي مباشرة للبحر في اللاذقية، وهذا العشق للبيوت الأندلسية ذات الباحات الكبيرة والتي لا تشبه بيتي الحالي في شيء. الآن أفهم حبي الصامت لمبارزة السيوف، وهذا اليقين الذي لا يبرحني بأنه لو كنت أمتطي صهوة جواد منطلق لما وقعت، وإنما لاستطعت ترويضه ولجمه في الوقت المناسب. كنت فارسة إذا، أو حتى محارب في جيوش كثيرة زحفت باتجاه حواضر مسورة بالحصون والقلاع. كنت أيضًا راهبًا ألفّ حول كرشي الكبير حبلًا طويلًا مفتولًا، وأخبئ تحت ثوبي البني زجاجات نبيذ لزوم المناولة، وكذلك كنت راعية في سهول آسيا وجبال القوقاز أعرف كيف أحمي قطيعي من الذئاب والدببة التي تجوب حوله. كنت أيضًا كاهنة مدججة بالحلي والخلاخيل، أُقدم الجنس المقدس في معبد باخوس[1] الوثني في بعلبك، كما كنت ذلك العبد المخصيّ الذي يأتمنه السلاطين على نساء الحرملك. لقد كانت روحي بهلوانية إذ ما إن تدخل إلى جسد ما في عصر ما حتى تخرج منه بعد بضع عشرات من السنين تاركة إياه متى عجز عن إكمال رحلته الحياتية القصيرة، إما بدافع المرض أو بسبب إصابة تضع حدًا له في ثوان. لكن لم يخطر في بالي يومًا أنني كنت على صلة ما بأي نبي أو أحد الأباطرة القدماء المعبودين ولا مرّ في خاطري أنني أنا، إثراء بهنام، قد حفرت هذا البئر الروحي الكبير العميق الذي وقع فيه

(1) معبد باخوس: هو أحد معابد مدينة بعلبك، في لبنان. بُني في القرن الثاني الميلادي، ويمتاز بكونه من أفضل الهياكل الرومانية الباقية بحلة جيدة إلى هذا اليوم.

أفراد يحصون بالملايين، جيلًا بعد جيل، بينما هالة القداسة تلف وجهي ورأسي. لا بد أنني كنت أبحث عن أمر بعينه على طول هذا الطريق الزمني الطويل، أمر أبى أن يَكشف عن نفسه حالما بدأت هذه المغامرة!

* * *

كنت متشبثة بكلتا يديّ بالعربة الصغيرة، أتفرج على الأرقام والتواريخ تتحرك بسرعة كبيرة على طرفي السكة، عندما أخذ عقلي السينمائي المعاصر يلعب لعبته الفانتازية معي، ويغلف اللحظة باللامعقول، ويجعلني أفترض حدوث أشياء كان من المستحيل أن أصدق حدوثها. لكنه الواقع، مع ذلك، بحرفيته الذي وثب فوقي مثل مارد فاردًا ذراعيه بينما كان قلبي يخفق كما خفقت أحشاء ذاك الطير المسافر. يا الله، أية رحلة عجائبيّة ساقها لي هذا العقل وحده. لم أستقل طائرة، ولم أدخل في كبسولة عالم يجرب اختراعًا خرافيًا للسفر عبر الزمن، ولم أُغادر التلة التي أقف فوقها في المدينة الأثرية لأوغاريت. كل شيء ها هنا، ضمن هذه الجمجمة التي لا تزن سوى كيلوغرامات قليلة، ولا تتعدى مساحتها بضعة بوصات. لقد تلاشت أمام ناظري كل هذه الحدود الفولاذية الصغيرة التي وضعتها الأفكار على عقلي والتي نشأت وترعرعت عليها في كل جسد كنته وفي كل حياة عشتها؛ أصبح تنفسي أبطأ، كما هبطت نسبة الأدرينالين[1] في دمي بعد أن فقدت إحساسي بعدم الأمان، واسترخت عضلات

(1) الأدرينالين: هو هرمون تفرزه الغدة الكظرية، وهو يعمل على تحضير الجسم للمجهود أو التوتر في حالة الخوف مثلًا أو الإثارة. الموسوعة الطبية.

فخذيَّ وساعديَّ. لم أعد بحاجة لأسلحتي، فليس هناك بعد عدو قديم ما زلت أحاربه في اللحظة الحاضرة، وليس هناك في الفضاء حولي عبارات مفروضة على روحي تطلب مني أن أثبت نفسي في سباق المنافسة البشري المحموم. لقد سكن العالم حولي، وهدأ بيسر كبير، وحط رحاله بتؤدة فوق خرس ضجيجه وصخبه، بينما كان في يدي القدرة على محيه أو بعثه في لحظة متى أشاء. يكفي أن أرفع كفي فوق الزمن المتحرك أمامي، أن أمده فوق التاريخ المرقم بدقة لكي يهدأ كل شيء، ويسكن. لا، إنني لست جسدي، إنني أنا. وفي هذه الأنا تكمن كل القدرة، يكمن السلام العميق والسكون المطلق، تكمن الروح القائدة التي هي في مقام أعلى من كل شيء مادي. في هذه النقطة الوجودية الخام أقف مكللة بالفهم، يغشى عيني دمع الحب اللانهائي لهذه الدنيا، وقدرة على الغفران لم آلفها فيّ من قبل. كأن هذه هي الحرية التي أنشدها، بل إنها تمامًا. أخيرًا، أنا حرة وبوزن الريشة، فلأتنفس الصعداء.

كنت ما زلت جالسة في تلك العربة حين قررت أن أغادرها عند أول حقبة ألمح فيها نفسي، وأن أحيا بذاكرة ذلك الوقت، وأن أكرر ذلك في كل الحقب التالية التي تدفعني عربتي باتجاهها وأختار النزول إليها متى وصلت. مع ذلك، الله وحده يعلم من كنت ومن سأكون، لكنني صليت، صليت كثيرًا كي لا أبرح هذه البقعة من العالم، ألّا أبرح الشام، وأن أعثر على مرادي فيها. وها هو صوت كبير قادم نحوي يخاطبني: أبحري في المغامرة، وسترين بأم عينك المراد.

27 ق.م، 16 شباط، روما

أنا الإمبراطور أوكتافيوس، أقف على قمة سلطتي المطلقة، بين يدي ثروة مصر ومئتا ألف جندي وأسطول ضخم تركع له المسكونة. لقد كنت بارعًا في إظهار كل فضيلة رومانية أمام شعبي، وحريصًا على الاحتفال بكل تقليد مهما كان صغيرًا. إنني أنظر إلى عبادة أبولو[1] وجوبيتر[2] في هذه الإمبراطورية العظيمة نظرة ليست سياسية فقط وإنما كأمر يتعلق فيه بقائي كله. إنني حتى لا أتوق إلى قيام ثورة أعيد فيها ما ضاع من روما بسبب الدمار الذي ألحقة الغال[3] بنا وإنما إلى استعادة كل قيمة رومانية

---

(1) أبولو: كان أبولو إلهًا يونانيًا رائدًا ارتبط بالقوس والموسيقا والعرافة (التنبؤ بالمستقبل). وكان أبولو مثالًا للشباب والجمال، ومصدرًا للحياة والشفاء، وراعي الفنون المتحضرة، ومشرقًا وقويًا مثل الشمس، ويمكن القول بأنه كان أكثر إله محبوب بين جميع الآلهة اليونانية. وكان يُعبد بشكل خاص في مدينتي دلفي وديلوس، من بين أشهر المقدسات الدينية في العالم اليوناني. World history encyclopedia.

(2) جوبيتير: إله السماء والرعد وملك الآلهة في الدين الروماني القديم والأساطير الرومانية القديمة. كان جوبيتر هو الإله الرئيس في دين الدولة الرومانية على مدى الفترتين الجمهورية والملكية، إلى أن أصبحت المسيحية هي الدين الحاكم في المملكة. ويكيبيديا.

(3) بلاد الغال: هو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي يسكنها "الغاليون" وهم شعوب قلطية. تلك المنطقة من أوروبا الغربية التي وصفها الرومان لأول مرةٍ، والتي كانت تسكنها قبائل قلطيّة وأقطانية، وتمتد على مساحة فرنسا، وبلجيكا، ولوكسمبورغ، ومعظم سويسرا، وأجزاءٍ من شمال إيطاليا، وألمانيا وهولندا ولا سيما غربيَّ الضفة اليسرى لنهر الراين وجنوبيَّها، وقد غطت قرابة 494,000 كم^2 (ما يعادل 191,000 ميل^2). ويكيبيديا.

فقدت بريقها أو ضلت طريقها. أراني، وقد غدوت القائد الذي تلوح لموكبه أغصان الزيتون من أقصى سواحل البحر المتوسط لأقصاها. فبعد عشرين عامًا من الحروب الأهلية تبدو روما، مدينتي الأبدية، متعطشة لرمي عدة الاقتتال ومتلهفة لكي تمنحني لقب صانع سلام وأنا ما زلت في فورة شبابي.

لقد أنهيت الجمهورية الرومانية القديمة[1]، وأصبحت إمبراطورًا أوحد عليها بلا منازع. فبعد أن وضعت حدا للحرب، أعدت السيطرة على الجيش من جديد، ونظمت سياسة الدولة الخارجية وأمورًا إدارية أخرى. لقد قمت بكل هذا بوصفي منتصرًا. من دون شك، كان لدي ما يكفي من الفطنة لأدير جنودي بلقبي كمستشار، وبألقابي الأخرى كنت أدير كل المقاطعات الرومانية في إمبراطوريتي. أما ثروتي الشخصية فكانت ضخمة لدرجة كنت قادرًا على دفع رواتب ثلث موظفي الدولة من جيبي الخاص.

في ذلك اليوم من شهر شباط، أعلمت مجلس شيوخي برغبتي في الكلام حول أمر بالغ الخطورة. خرجت صباحًا من دارتي المتواضعة التي يعلو واجهتها سقف هرمي يشبه المعابد الدينية بينما علق فوق المدخل الرئيسي إكليل من أغصان شجر البلوط، كنت قد مُنحته سابقا لفرط شجاعتي. لقد كنت مريضًا أتماثل للشفاء، وكان إحساسي بوهن جسمي وأنا أُغذّ خطواتي باتجاه المجلس يثقل على

---

(1) الجمهورية الرومانية القديمة: (من 509 ق.م وإلى 27 ق.م)، ظهرت بعد سقوط المملكة الرومانية في سنة 509 ق.م. وهي تعتبر مرحلة هامة من مراحل التاريخ الروماني.

حركة قدمي. ليس فقط المرض ما جعلني أشعر بالإنهاك الخفيف وإنما أعباء الدولة على كتفي التي أنقذتها من مسلسلات الحروب، وهي في رمقها الأخير. مع ذلك، كنت أعرف في قرارة ذاتي أنها تحتضر وأن الحروب الطويلة لا تخلف دولًا منكسرة فقط بل شعوبًا أنهكها المكر والفساد والانقسام والأنانية. لقد أعيتني مشاكل دولتي التي كنت أُديرها بنفسي من الألف إلى الياء، ولقد آن الأوان لكي أتكلم. إنني، من دون شك، أشعر بجلال الرجال التاريخيين، وأنا متجه بزيي الروماني الطويل إلى مجلس الشيوخ.

* * *

وقف المجلس المهيب بشيوخه الثمانمئة حالما دخلت. لقد تركت تاجي المُظفّر في المنزل، فهموم روما لم تترك مكانًا حتى لمثل هذه الأوزان الصغيرة على رأسي. أردت أن أتحدث من دون لف أو دوران وهذا ما أعطي لي. حالما انتهى التصفيق، انبريت أخبر المجلس كم كان قاسيًا العمل من أجل استعادة الدولة، وكم كلفني استقرار البلاد من يقظة وتوتر. لقد رددت على مسامع الشيوخ كم أنا متعب وبأن ما قدمته للبلاد يفوق أي مواطن آخر ولذلك..

– فإنني أطلب من محفلكم الموقر السماح لي بالتنحي عن مهامي و...

علت صرخات الشيوخ مستنكرين، بل إن أحدهم وقف يقترح، ويترجى:

– من أجل صالح البلاد أيها القائد العظيم، ابقَ في السلطة وسوف نمدك بأكثر المستشارين حنكة وخبرة لمساعدتك. أرجوك يا

سيدي، من أجل كل ما أنجزته، من أجل استقرارنا وسعادتنا، من أجل الآلهة نطلب منك عدم التنحي! سوف تبقى أيها الامبراطور قائدًا على إيطاليا وبلاد الغال وسورية ودع لنا مهمة الاعتناء بالمقاطعات الأخرى وشؤون روما الداخلية.

بعد تفكير متلكئ بما قاله هذا الشيخ والصمت الشديد الذي خلفه كلامه، وافقت على التنازل عن التنحي. انفجر المجلس بضجيج سعيد وصخب وتصفيق عاليين وكافأني في الحال بأن أطلق علي لقب (أغسطس قيصر)، لقب سوف أعرف به من الآن فصاعدًا.

كأني كنت زاهدًا كاذبًا في السلطة، كأن طلبات التنحي المتكررة ما هي إلا ادعاء. كأني كنت أرى الدنيا حولي كأضغاث أحلام بينما أنا في شبه غيبوبة السكر في أحضان زوجات وعشيقات ومشاكل عائلية لا تنتهي. وهكذا، قبل نهاية السنة الثالثة والعشرين، أعلنت إعادة الجمهورية. أما جوبيتر فكان رب الأرباب ورمز لدين الإمبراطورية القومي. نحوه، أعلى تل الكابيتولين[1]، كانت نساء

---

(1) تل الكابيتولين: تلة كابيتولين (أو مونتي كابيتولينو) – واحدة من أكثر التلال شهرة وشعبية من بين سبعة تلال بنيت عليها روما القديمة. هذا هو المكان الذي اعتاد الناس فيه عبادة الآلهة القديمة، ومنه كانت تصدر القوانين، وحيث يقوم النبلاء الأثرياء ببناء فيلاتهم الفخمة والمكان الذي صنع فيه أسياد عصر النهضة، التاريخ. بني هذا التل في القرن الخامس قبل الميلاد. كان مكانا لاجتماعات مجلس الشيوخ وكذلك مكانًا لمكتب السجلات الرسمية. تم تكريس المعبد لثلاثة آلهة رومانية قديمة رئيسية: جوبيتر وجونو ومينيرفا. أدى سقوط الإمبراطورية الرومانية عام 1453 إلى تدمير هذه المباني لدرجة أن المواطنين كانوا يستخدمون المنطقة لرعي الماشية. Rome.us.

روما يتجهن حافيات الأقدام في مواكب لاستسقاء الغيث. أما في أوقات الحرب، فكانت أبواب المعبد تفتح فربما أراد جوبيتر النزول لمساعدة الجيوش في انتصارها.

لقد سمحت لجنودي المدججين أن يسبو آلهة كل أرض يدخلونها، ويسوقونها بالجنازير إلى روما. هكذا ساقوا ميثراث[1] الفارسية وإيزيس[2] المصرية، وأحضروهما أمام عيني. حين كنت ألمح طلائعها، وهي تتقدم باتجاه سور المدينة، كنت أشعر بأنني في ذروة قدراتي الجنسية؛ النشوة الأمتع من أي نشوة شعرت بها مع أي امرأة جميلة، ولقد عرفت العشرات. وحين كانوا يفكون عنها أصفادها بعد أن تستقر أمام باحة مجلس الشيوخ كنت أشعر بإغواء كبير كمن يرى حبيبته تتعرى أمامه. ربما هذا هو السبب الخفي الذي جعل المرض يفتك بي مرات كثيرة خلال حياتي الطويلة، أو ربما هو الشرق، الشرق المغري الذي فتنني، وأصاب

---

(1) ميثراث: إله النور، الذي انتشرت عبادته من الهند في الشرق إلى أقصى الغرب مثل إسبانيا وبريطانيا العظمى وألمانيا. أول ذكر مكتوب لهذا الإله يعود إلى 1400 قبل الميلاد. امتدت عبادته إلى بلاد فارس، وبعد هزيمة الإسكندر الأكبر للفرس، وصل إلى جميع أنحاء العالم الهيليني. في القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد، كانت عبادة ميثرا، التي حملها ودعمها جنود الإمبراطورية الرومانية، المنافس الرئيسي لدين المسيحية النامية حديثًا. Britannica.

(2) إيزيس: هي إلهة رئيسة في الديانة المصرية القديمة والتي انتشرت عبادتها في العالم اليوناني الروماني. ذُكرت إيزيس لأول مرة في المملكة المصرية القديمة (2686–2181 ق.م) كإحدى الشخصيات الرئيسة في أسطورة أوزوريس، إذ قامت بإحياء زوجها الملك الإلهي المذبوح أوزوريس، كما أنجبت وريثه حورس وقامت بحمايته. ويكيبيديا.

مني مقتلًا! إنهم يقدسون أباطرتهم وملوكهم تقديسًا مذاقه حلوٌ مثل العسل. لقد رأيت نفسي أدشن تلك العادة ها هنا، ومن هنا انتقلت ربما إلى دمشق وطرسوس[1] وكل ولايات إمبرطوريتي التي وصلت حتى البحر الأحمر. لقد وصل سفرائي حتى الهند، ومراكبي الرومية أبحرت في المحيط الأطلسي حتى أوروبا وإفريقيا حيث وجدت قواعدي العسكرية مكانًا لها ومرتعًا راسخًا على ضفاف الدانوب. كأنني مهووس بالأمن والحروب، وإلا لما تركت حرسي الروماني ينتشر على طول الطرق التي بنيتها عبر مقاطعاتي كلها، أليس ليحمي دروبها من قطاع الطرق والقراصنة؟

***

أصبحت طاغية مع الوقت من دون قصد أو ربما هكذا هيّئ لي! إن السلطة تصنع منا طغاة وكذلك التقديس. نبدأ بأحلام كبيرة بالمساواة والعدالة لننتهي في قمقم المجد التافه والمعزول. ومن هناك، من أعلى مكان نصل إليه نأخذ بالتطلع إلى الدنيا حولنا فنراها صغيرة وغير ذات أهمية، وفي تلك اللحظة بالذات يتعملق الطاغية الصغير الذي فينا ويبدأ بحسابات أخرى نمت فوق أريكة الحكم الوثيرة، لكنني مع ذلك طاغية حزين ضاق ذرعًا بزينة قصور روما وزخارفها على الصلصال المشوي والمحروق. لقد رأيت نفسي أُعطي أوامري باستبدالها كلها بالرخام المُزرقّ الذي

---

(1) طرسوس: مدينه في جنوب تركيا على نهر طرسوس. طرسوس القديمة كانت عاصمة كيليكيا السورية وكانت مدينة كبيرة في آسيا الصغرى. ولد في هذه المدينة القديس بولس الرسول.

يخلب اللب، كما عثرت على نفسي أتلصص مرات كثيرة على الفن الإغريقي وأطلب من نحاتيّ الخاصّين سرقة فن نحت الفساقي المرمرية في قصور الأسياد، كما أعدت بأمر واحد بناء كل المعابد من جديد من الحجر القديم. لكن الدين، مع ذلك، يجب أن يأتي في المرتبة الثانية بعد المواطنة. إن فخري لا يأتي من تضرعي لأي آلهة، وإنما لكوني رومانيًا أصيلًا أرتعش تأثرًا كلما رأيت انتصارات شعبي منقوشة على أعمدة روما.

مليون رجل وامرأة وطفل كانوا يقطنون في روما مهددين بالمجاعة إذا ما منع الطقس السيئ مراكب الحبوب القادمة من إفريقيا الشمالية من الإبحار والوصول. كل شيء كان يصب في مجد مدينتي الصاخبة المزدحمة والتي جُعل من المستحيل على سكانها النوم وسط حركتها النهارية الهائلة ومرور العربات في أزقتها وأجراس أحصنتها البرونزية التي كانت ترن مدوية في الفضاء. لقد أردتها أعظم مدينة في التاريخ. أردتها أبدية. روما هي أنا، صنعتها بسلطتي، بأصابع كفيَّ الرقيقتين والمدعوكتين بالطيوب والزيوت واللتين مرتا آلاف المرات على الأجساد البضة الناعمة.

ها أنا أتطلع من فوق، من شرفة منزلي، فأرى كيف ينشغل شعبي في تقديم الأضاحي وممارسة الطقوس لجوبيتر الذي كانت الأصوات تلهج أمامه بالطلبات المادية. لقد ظنوا أن في هذه الآلهة أرواحًا فأخذوا في تصنيفها؛ أرواح المرضى والموتى والأطياف، وأرواح الماء والغابات والحيوانات المقدسة. لطالما كنت حكيمًا فآخذ جانب الصمت، ولا أتدخل في كل هذا، وإنما أكتفي بالمراقبة

بسخرية من هذه المعتقدات التي تركت الأوز المقدس يسرح، ويمرح في بهو الكابيتولين من دون أن يجرؤ أحد على المساس به.

ما أذكى هذه العقيدة؟ ما أذكاني، وأنا أعيد الألق لخضوع فقد بريقه. جوبيتر المنحوت على شكل بشر، على شكلي، كان موحد الرومان، وإليه تقدم الطاعة في معبد أعدت أنا رفعه على أعمدة الرخام بعد الحريق الأخير الذي أتى عليه. إن الإحساس بالتاريخ أمر طاغ في روما. مَن غيري يعرف هذه الحقيقة ويدركها؟ من غيري! مع ذلك، كنت كلما أبني صرحًا مزخرفًا، أو أطوب آلهة جديدة، كان اليونان يهدونها بسخريتهم. اليونانيون زعزعوا ديانة قومي، زعزعها الشك الهلنستي، قالوا إنني صنفت الفنانين والمفكرين في رتبة الخدم بينما قدسوا هم العقل واليد اللذين يحركانها. لم يقولون هذا! خسئ هؤلاء المتفذلكون، إن في تماثيلي عقولًا توازي في فهمها ونضجها عقل أفلاطون بذاته.

حين نكون مواطنين في إمبراطورية كبرى مثل هذه التي أحكمها فنحن كلنا خدام لها. لست متيقنا إن كان هذا مفعول السلطة بي لكني أرى التماثيل أهم من اليد التي صنعتها. تماثيل للعبادة في كل مكان، رخام بديع ملأ الدنيا حولي وسد الأفق أمام عيني فلم أعد أرى، ولا أسمع. تُرى ماذا تسمى هذه العبادة للحجر، للعواميد وللتماثيل الراضية فوق قواعدها، عبادة للفن، أم للمنحونة بذاتها؟ إذا كان الأمر كذلك، إذا أنا المسؤول عن شح الخيال في مملكتي وعن هذا التمجيد الباطل للقوة والبأس والطموح. إنني أرى كل هذا في شعبي الذي يملأ الأزقة والحانات والحمامات الكثيرة التي يسترخون

فيها تحت تدليل الأيادي المدلكة بينما عيونهم تتطلع إلى لقاءات المجون الليلية. هل أنا نسخة عنهم، نسخة أكثر لؤمًا وحنكة!

* * *

تتعبني هذه اللحظات الحارقة التي أحاكم فيها نفسي. كلما تُركت وحيدًا، تهجم علي تلك الأفكار من دون رحمة فتفلح بي مثل معول حديدي قوي. عشت ستّةً وسبعين عامًا باعتباري أغسطس قيصر، (الأب القائد) كما أطلقوا علي، إله ابن إله ومُخَلِصًا منتظرًا تُنصب له التماثيل ليتضرع إليها كل سكان الولايات الرومانية مهما كانت عقيدتهم. عشت سنينَ طويلة انتهى خلالها خصومي إلى القبر، ومات أغلب من أحبهم، بل إن ابني الذي كنت أعده لكي يرث عرشي، وقع عن صهوة جواده ومات ولم يبق لدي سوى تيبريوس، ابني المتبنى الذي لا قابلية له على الحكم، لكنه كان ملاذي الأخير، لكي يرث مكاني. حين بايعوه خلفًا لي ماتت الجمهورية الرومانية وراحت إلى غير رجعة. لقد صار تيبريوس إمبراطورا لأن شعبي أراد فقط أن يرد الجميل لي. لقد قالوا إنه خير خلف لخير سلف، وهكذا انتهينا. إنني آمل أنني قد لعبت دورًا جيدًا، وأنه قد صُفق لي كثيرًا عندما خرجت من خشبة المسرح الكبير.

في السنة الرابعة عشرة متّ، سار حشد كبير وراء جثماني بينما أغلقت كل الشركات العامة والخاصة أبوابها في ذلك اليوم. كنت موضوعًا في تابوت يليق بي معد للمحرقة. بعد ثلاثة أيام كرسني مجلس الشيوخ كإله. لقد بنوا حتى المعابد من أجلي. كنت

فطنًا لا تفتني شاردة، أو هكذا ظننت، فتركت توصيات لتبريوس وتعليمات كثيرة فيحفظ ما جهدت في صنعه كل تلك السنوات الماضية. لقد أردته أن يقنن في منح المواطنة الرومانية لأي كان، فلا تفقد قيمتها، وأن يتشدد في تحرير العبيد، وأن يعتمد فقط على أهل الخبرة، وأن يبتعد عن المحسوبية فلا يمنح الوظائف للأصدقاء والمعارف، إلا إذا كانوا جديرين بها، وأخيرًا أن يحفظ المملكة ضمن الحدود التي رسمتها لها. هه، كأن هذه التعليمات جهد كل من أتى بعدي على مخالفتها جملة وتفصيلًا.

* * *

"لم أعد أرغب بالعودة أكثر في التاريخ، لقد شعرت بغثيان سببه حركة العربة وطول السفر. لقد كنت منهكة فالاحتضار ثم الحرق جعلني في حالة من فقدان التوازن وتشوش كبيرين. لقد غادرت روحي جسدي القيصري إلى غير رجعة، بينما كانت عربتي تتقدم بتؤدة إلى الأمام من دون أن أعود إلى الزمن الحاضر. لا بدّ أن هناك شيئًا ما كنت أبحث عنه في كل هذه الحياة الحافلة. لا، لم يكن مجد روما الذي كان بين يدي، ولا الألوهية التي منّ بها على شعبي العظيم، ولا حتى آلهة الكابيتولين المقدسة التي كانت تنتظر إشارة مني لكي تبارك أو تغضب. لا بدّ أن حقل عباد الشمس في داخلي يتطلع إلى مكان آخر. هناك، في ذلك "المكان الآخر"، سوف أستقر وأهدأ بعد طول ترحال، وسوف أتخلص من آخر طبقة من الأفكار المتكلسة التي تراكمت فوق روحي فأردتني قتيلًا".

حوالي 35 ميلادية، الطريق إلى دمشق

ممتطيًا صهوة جواد قوي على رأس فرقة مسلحة خارجًا من باب دمشق[1] في مدينة أورشليم. كان أمامي أيامٌ قليلة من السفر قبل أن أصل. يبدو، وكأنني اخترت أقرب درب مؤدية إلى المدينة عابرًا وجنودي سهول السامرة باتجاه جنين ومنها إلى سهل عسقلان الأخضر بينما الريح المالحة القادمة من البحر كانت تلعب يمينًا وشمالًا حولنا.

كان لباسي الروماني وصندلي الجلدي الطويل يتسع حول قدمي، وأنا أتمايل فوق الخيل المنهكة التي كانت تخب ببطء تحت شمس لا تتعب كلما اقتربنا من دمشق. أدركت أن اسمي شاؤول وأنني كنت أحث الخطا باتجاه الجماعات اليهودية التي انقلبت إلى المسيحية لكي ألقي القبض عليها وأسوقها إلى أورشليم مكبلة بالأصفاد والجنازير. إن الحب بذرة تنمو في باطني مثل القتل والتدمير والقضاء على أي شيء يقف في طريق بقاء أمتي حتى ولو كان سحق حشرة صغيرة تتجه إلى إهراءات القمح والمؤونة. إنه القتل الهادف المرصع بالحب، وكيف لا يكون كذلك! القتل المبارك

---

(1) باب دمشق: وهو واحد من أهم الأبواب لمدينة القدس القديمة. يطلق عليه اليوم باب العمود أو باب نابلس، وهو أكبر وأروع مداخل البلدة القديمة، والمدخل الأكثر استخدامًا إلى الحي الإسلامي. تفتح البوابة على طريق نابلس الذي يؤدي إلى مدينة نابلس وكذلك إلى مدينة دمشق.

الذي قُرئ عليه كل آيات شريعة موسى. إنني أشعر بغضب الرجل الذي لديه مهمة مقدسة لم تنته. كانت فكرة أن اليهود المرتدين يعيشون بسلام في دمشق من دون مضايقات تقض مضجعي. إني فريسي[1] ابن فريسي متمسك بالناموس ومحافظ عليه. رجل مختون في اليوم الثامن من سبط بنيامين[2]، عبراني[3] من العبرانيين، ومولود في مدينة طرسوس في مقاطعة كيليكيا السورية. أي هرطقة هذه؟ أي بدعة؟ أية مياعة تجعل من أحد ما يتخلى عن قوميته ودينه؟ أنا أيضًا أتكلم اليونانية وبطلاقة، لكني لم أتخل عما تخلى

---

(1) فريسي: الكلمة من الآرامية ومعناها "المنعزل" وهي إحدى فئات اليهود الرئيسية الثلاث التي كانت تناهض الفئتين الأخريين فئتي الصدوقيين والأسينيين، وكانت أضيقها رأيًا وتعليمًا (أع 26: 5). من حيث العقيدة، كانوا يقولون بالقدر ويجمعون بينه وبين إرادة الإنسان الحرّة. وكانوا يؤمنون بخلود النفس وقيامة الجسد ووجود الأرواح (أع 23: 8) ومكافأة الإنسان ومعاقبته في الآخرة بحسب صلاح حياته الأرضية أو فسادها غير أنهم حصروا الصلاح في طاعة الناموس فجاءت ديانتهم ظاهرية وليست قلبية داخلية. وقالوا بوجود تقليد سماعي عن موسى تناقله الخلف عن السلف. وزعموا أنه معادل لشريعته المكتوبة سلطة أو أهمّ منه. st-takla.org.

(2) سبط بنيامين: اسم عبري معناه "ابن اليد اليمنى"، أو "ابن اليُمن". واحدة من القبائل اليهودية الاثنتي عشرة. اشتهر أبناء هذه القبيلة بصفتي الثبات والوفاء وقوة البنية. كان منهم شاؤول الطرسوسي الذي صار القديس بولس.

(3) عبراني: يهودي. أصل تلك التسمية تدل على أنها مسمى لقومية عرقية أو لغوية.

عنه اليهود اليونانيون!!! إنهم صعبي المراس، يهود بومبيوس[1] ويهود الإسكندرية وآسيا الصغرى وكيليكيا، كيليكيا وطني! من يعرفهم أكثر مني، من يعرف مجامعهم أكثر مني أنا الذي طالما دخلت إليها وعلا صوتي فيها محتدًا بالإقناع تارة وبالاتهامات العصبية تارة أخرى. إنهم يتكلمون عن رجل غير موجود، عن "نبي" من اختراعهم، وأنا أطارده فيهم، أطارده.. أطارده...! يا لهذه الشمس القاتلة! يا لهذا الحر العنيد!

* * *

الوقت ظهرٌ والشمس تقف فوق رأسي تمامًا، وكأن كثبان لانهائية تلمع وتموج أمام ناظري. إنني محاط بجنودي المتعبين من طول السفر وبقافلة المؤن والعتاد. ليست هذه سفرة جميلة لي كما يبدو، فليس للطبيعة بتربتها وزرعها ونجومها وأشجارها مكانٌ لدي بقدر القضية الروحية الكبرى التي أنشغل بها: حماية الشريعة من نسمة الهواء اللطيف. لم أعرف كم ستطول مهمتي في دمشق ولكن كلما أسرعت كان لا بد أنه سيكون أفضل. إن شريعة اليهود تقف على محكها اليوم، فأولئك الذين انقلبوا عليها خصوصًا ممن في الشتات في

---

(1) يهود بومبيوس: مدينة في كامبانيا، جنوب إيطاليا. هناك بعض الأدلة، معظمها من الكتابة على الجدران، تشير على أن اليهود عاشوا في بومبيوس وكذلك في المدن المجاورة لهركولانوم وستابيا، قبل تدميرها في ثوران بركان فيزوف عام 79 م. ويبدو أن معظم اليهود وصلوا إلى بومبي بعد 70 ق.م. يدعم هذا الافتراض وضعهم المتواضع كمحررين أو عبيد أو خدام أو عاهرات. وهم يحملون أسماء يهودية تقليدية مثل إيسوس، ويوناس، وماريا، ومارثا. encyclopedia.com.

طول وعرض الإمبراطورية الرومانية لن يعودوا إلى السراط المستقيم إلا إذا أتى رجل من صلبهم ووضع حدًا لهم. أما روما اللامبالية فما همها! فليقف من يشاء، ويدق على صدره معلنًا أنه إله ابن إله فطالما هو لا يقلق أمنها واستقرارها، إذا من يأبه له طالما أن قيصر هو الإله الأوحد المكرس فيها. أما نحن فكنا على صواب عندما جعلنا مجامعنا الدينية تحوي في أقبيتها على سجون من أجل عقوبة المتمردين. كثر ماتوا مثل هذه الميتة الخائبة تحت ضرب السياط والرجم. رجال ونساء شذوا عن السراط المستقيم بحسب الشريعة، وهرطقوا معرضين كل ما جهدنا للملمته عبر السنين. لولا الحنين لما كان الناموس، حنين لم الشمل. من غيري يعرف هذا؟ من غيري!

* * *

كان رأسي يدور ببطء وثقل مثل حجر الطاحون. لعلها الحرارة، أو ربما الغيظ الدفين، الله أعلم! لكن كلمات معلمي غملائيل[1] الذي تلقيت الشريعة والناموس على يديه كانت تروح وتجيء في عقلي مثل بندول رقاص؛ "سيزول كل شيء لا يأتي من الله، سيزول كل شيء لا يأتي من الله". وكيف لي أن أعرف ما يأتي من الله وما يأتي

---

(1) غملائيل: اسم عبري معناه "مكافأة الله" وهو حاخام يهودي، عضو في السنهدرين، ورئيسه. وهو فريسي، وأحد اللاهوتيين اليهود المعروفين في القرن الميلادي الأول. كان غمالائيل أول من طالب برفع القيود عن رسل المسيح والكف عن اضطهادهم. وحجته أن عمل الرسل إن كان إنسانيًا، فهو يسقط بطبيعة الحال، ويفشل، ولا يبقى له معجبون، أما إذا كان عملًا إلهيًا فمن حق الرسل أن يتابعوه ومن الخطأ أن يقاومه اليهود، لأن مقاومة إرادة الله شر (أع 5: 34– 39). وكان غمالائيل أحد معلمي بولس في الشريعة (أع 22: 3). وقد مات في منتصف ذلك القرن.

من بشر يصرون على أنهم الله؟ ما إن صلبوا ما أسموه الناصري هذا، حتى تبعثر تلاميذه، واختفوا في الأزقة والأقبية الخفية. لكنه عاد، وكأنه لم يمت. أي جنون هذا، بل أية وقاحة؟

الحر الشديد يجعلني أذوي، وأرتخي لكن الذكريات القريبة بدت، وكأنها في متناول يدي، أراها أمامي تتحرك، بل إني أرى الوجوه تتحلق حولي وتتحدث من دون انقطاع، وكأني تمامًا في المجمع الكبير في أورشليم. لكني مع ذلك مصر على المهمة التي ألقيت على عاتقي. لا الشمس، لا العجائب الخلبية التي قام بها هذا الرجل والتي يتحدثون عنها بكثرة، ولا حتى أي ادعاء يقول إن الشريعة مرحلة مؤقتة تنتهي بمجيء إنسان غير منظور، يمكن لها أن تقلل من عزمي وعزيمتي. لا أحد ولا حتى استيفانوس[1]...! يا الله ماذا حل بي؟ كأني أشد من أزر نفسي، كأنني.. ولكن لا... ألم يقولوا في الكتب "ملعون كل من عُلِّق على خشبة"[2]؟؟ بلى، الكتب تقول ذلك..إذًا، لمَ أهذي كلما مرت صورة استيفانوس أمام ناظري؟ لمَ يهزني كلام مهرطق تجرأ، وقال إن الشريعة والهيكل هما درجة

---

(1) استفانوس: هو اسم أول شهداء المسيحية وأول الشمامسة أيضًا. وبما أن اسمه يوناني فيرجّح أنه كان هيلينيًا (أي أنه لم يكن يوناني الجنس بل يوناني اللغة والثقافة) أو أنه كان يهوديًا يتكلم اليونانية. ولما لم يتمكن بعض من هؤلاء اليهود الهيلينيين أن يجاوبوا استفانوس أو يقاوموا قوة الحكمة والروح التي كانت فيه اخترعوا ضده شكايات زور، فدسّوا رجالًا مأجورين يقولون إننا سمعناه يجدف على الله وعلى موسى وأنه تكلم ضد الشريعة وضد الهيكل. وقدمت هذه الشكاوى إلى مجمع السنهدرين (أعمال 6: 9 – 14).

(2) غل 3 – 13.

مؤقتة في مخطط الله لخلاص الإنسان. اليهودية لا تخطئ لكي تكون حلقة في سلسلة. إنها هي كل السلسلة! لا يمكن أن يكون هذا الرجل غير المنظور هو نهاية المطاف!! لا يمكن!

لكني أرى وجه استيفانوس في عمق بؤرة الشمس اللاهبة، مقتولًا، مهالًا فوقه كوم الحجارة، وهو يقف في حفرة الرجم يتطلع إلى السماء بعيون الشوق السخيف والتسليم التافه. وجهه الملح يأتيني فوق كل شيء حولي. أتطلع فلا أرى غيره... لقد استحوذ على تفكيري كما فعل "نبيّه" به. يا للسخرية! إن خطابه في السنهدرين[1] لا يبرح خيالي. في مجمع الكيليكيين ذاك الذي علت على مدخله العبارات الآرامية، احتشد رجال من كل إقليم. كأنه كان يوم الحشر. ما إن انتهت قراءة بعض الأسفار الموسوية[2] حتى ابتدأ الجدل. رأيته هناك واقفًا فوق منصة المجمع العالية يخطب، ويجادل، ويماحك.

---

(1) السنهدرين (السنهدريم): كلمة عبرية معناها الجالسون معًا ومعناها في اللغة الآرامية محفل. هو مجلس اليهود الكبير خلال حياة السيد المسيح. يمثل السنهدرين الشعب اليهودي أمام السلطة الرومانية الحاكمة وهو يتكون من واحد وسبعين عضوًا. لكن الحكم الذي يصدره لا يُنفذ إلا بعد موافقة الحاكم الروماني عليه، ويطلق عليهم أحيانًا شيوخ الشعب. كان الرومان يعترفون بسلطان السنهدرين لذلك خصصوا له حرسًا وشرطة. تم القبض على السيد المسيح ومحاكمته من قبل هذا المجلس. توقف عمل المجلس بعد عام 70 م، وذلك بعد خراب أورشليم. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

(2) الأسفار الموسوية: هي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وهي: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية. وسميّت هذه الأسفار "سفر شريعة الرب بيد موسى" (2 أخبار 34: 14) و"سفر شريعة موسى" (2 أخبار 17: 9) و"سفر الشريعة" (2 مل 22: 8؛ 2 مل 23: 21) و"شريعة موسى" (عز 7: 6) و"سفر شريعة موسى" (نح 8: 1) و"سفر موسى" (عز 6: 18؛ نح 13: 1؛ 2 أخبار 25: 4؛ 13: 12) و"التوراة" (مت 12: 5) و"الناموس" (لو 10: 26؛ يو 8: 5، 17). دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

لقد راقبته بحنق، وهو يعري الشريعة من نواهيها وأوامرها. لقد انبرى الجميع واقفين ملوحين بقبضاتهم حالما سمعوا كلام استيفانوس وتجديفه، وهكذا تحول المكان إلى محكمة كبرى. كانت النيران تأكل قلبي، ولهذا حين جره الغاضبون إلى باحة الهيكل حيث تجمع رجال الملة فسحت لهم طريقًا. نعم فسحت لهم طريقًا بنفسي. لم يكن هناك حاجة إلى التصويت. لقد تجاوز الناقمون (قيافا) رئيس الكهنة نفسه، وسحبوا الرجل إلى مكان للرجم قرب باب دمشق في أورشليم. وقفت أتطلع إلى المشهد بينما كان الراجمون يخلعون مآزرهم لسهولة الحركة، ويضعونها تحت قدمي لأحرسها. لقد انهالت الحجارة عليه إلى أن خر على ركبتيه غارقًا في دمائه مسلمًا الروح. لم تنم المدينة تلك الليلة ولم أفعل أنا. لقد ناحت النسوة مع والدة الميت بصوت نادب عميق لا تبرح نغمته أذني. لكن، لمَ كل هذه المواجع التي تنقلب علي الآن!! لا يمكن لرجل ملعون صلب بين مجرمين اثنين، واحد عن يمينه وآخر عن شماله، أن يكسر حلقة القومية اليهودية المتينة، وكيف له؟ وكيف له؟

* * *

أخذ الحَرّ يقوى كلما اقتربنا من دمشق. كنت أشعر أنني أشوى، فالنيران التي في داخلي تسكرني، وتجعلني مثل الدائخ. إن طريق الله ليس سهلًا خصوصًا إذا كان فيه مثل هذا الختان الروحي العنيف. من يعرف هذا أكثر مني؟ وإلا لمَ أنا الآن أخب مثل خيولي المتعبة فوق رمال هذه الأرض الحارقة؟ إن الله هو الله، منذ الأزل هو الله! لمَ علينا أن نستنتج ذلك؟ لمَ علينا أن نفلسف

ذلك؟ اليونانية ليست سوى لغة أخرى. إنها ليست من أجل تعليم الإيمان! لا، إنها حتمًا ليست كذلك! لكن كيف لي أن أمحيها من ذاكرتي؟ هذه اللغة العنيدة الشكاكة؟ إنها تكشف الناموس أمامي، وتعجنه، وتشيله، وتحطه، وأنا لا أريد هذا. إنها تجعلني أفكر، وأنا لا أريد هذا. إنها تفتح عقلي في المكان الذي أريد أن أغلقه تمامًا وأنا لا أريد هذا! إنها تجعلني أهجس بهذا الذي لم تره عيني مرة، أنا الفريسي من جهة الناموس، والعبراني الذي يؤمن بالتدبير الإلهي وبالأبالسة والملائكة وبحياة الوقار وصرامة الأخلاق، وأنا لا أريد هذا!! نحن هم القديسون والأحق بدخول الملكوت السماوي، فوالله لو ذهب شخصان فقط إلى السماء لكان واحد منهم فريسيًا.

ما لي أرفع صوتي كمن يقف في محكمة؟ ولمن أرفع صوتي وأتوجه بأفكاري؟ إن جنودي ورائي نصف مغمى عليهم من شدة الحر، يتناوب التعب والنعس على أبدانهم التي أنهكها السفر. إذًا، لمن أرفع صوتي وأعمل عقلي اليوناني تارة والتلمودي تارة أخرى؛ هذا العقل الذي لا يهدأ! يا لاستفانوس هذا! لقد تركوا أسمالهم البيضاء تحت قدمي لأحرسها، ولكني لم أتناول حجرًا مثلهم، وأضرب. هذا ليس شأني. مع ذلك، مالي أحس بكل الحجارة التي تساقطت عليه، وقد ارتدت على جسدي الضئيل، ارتدت حجرًا حجرًا! لا.. أنا لا أبالي بكل هذا! لا يوجد كائن روحي آخر سوى الله. فلأصمت إذا ولأوقف هذه الأصوات التي أتتني من غامض علمه! علي أن أحث الخطا باتجاه دمشق من دون المزيد من التفكير، فهذه الإمبراطورية تضم شعوبًا كثيرة تؤمن بآلهة مختلفة

يصل عددها إلى عدد شعر رأسي. كيف لي أن أقبل بأن يكون يهوا[1] بمصاف الآلهة ميثراث الفارسية أو ايزيس المصرية أو حتى مثل مارس إله الحرب الروماني وحامي الجيش أو فستا[2] أو منيرفا[3]؟ أو.. أو، يا للمهزلة، أو حتى بمصاف رجل غير منظور! سوف أطاردهم حتى ولو وصلوا إلى أصقاع الأرض، حتى ولو كانوا يونانيين في أصلهم. سألحق بهم إلى السامرة ودمشق وحتى قبرص وأنطاكية. إنني أخاف على يهود دمشق الورعين من هؤلاء

---

(1) يهوا: يهوه وهو اسم من أسماء الله (خر 17: 15). قد ورد اسم يهوه في اللغة العبرية في العهد القديم 6823 مرة وقد استعمل اسمًا لله للدلالة على معاملة الله للبشر (تك 2). أو معاملته لشعب بعينه (خر 6) وبنوع خاص في علاقة العهد مع ذلك الشعب (خر 24). قاموس الكتاب المقدس.

(2) فستا: هي إلهة رومانية عذراء، وهي إلهة الموقد والبيت والعائلة. يرمز لوجودها بالنار المقدسة التي تحرق في موقدها ومعابدها. تشبه الإلهة هيستيا في الأساطير الإغريقية لكنها أهم منها. تقول الأساطير إن الإلهة فستا هي التي علّمت الشعب الروماني القديم كيفية استعمال النار. وكانوا يبنون لها أمام بيوتهم معبدًا صغيرًا ضمنه نار مشتعلة تكريمًا لها. كانت هياكلها منتشرة في الإمبراطورية الرومانية ولكن أعظم هياكلها بني في مدينة روما، مركزه بين الكابيتول وجبل بالاتين. أما أعيادها فكانت تقوم على مرحلتين: الأولى في آذار، والثانية تمثل العيد الأهم بين 7 و15 حزيران، حيث تقام أعياد شعبية، وخلال هذه الفترة، تنذر العذارى نذورها. وكان يقوم على خدمتها كاهنات عذارى يعينهنّ كبير كهنة روما، يدعين الفيستال.
A Dictionary of Greek and Roman Antiquities.

(3) منيرفا: هي إلهة العقل والحكمة وربة جميع المهارات والفنون والحرف اليدوية عند قدماء الرومان.
Larousse Desk Reference Encyclopedia, The Book People, Haydock, 1995, p. 215.

اللاجئين. أخاف أن يتلوثوا من هذه الهرطقة الجديدة. يجب أن تتطهر المدينة من هذه الخلية السرية الجديدة. يا لضلالهم! إن الذي ننتظره خاصتنا هو بطل بقدرات إله حقيقي لا يقهر، هو زعيم لأمتنا،" أينما التفت يرتجف الكون من رؤية وجهه. كل شيء يذوب كالشمع أمام وجه النار. يكفي أن تقع أبصاره حتى يذوب كل شيء، يكفي أن يُسمع صوته حتى ترتجف الكائنات"[1]. إذًا، كيف يُقهر أو يُصلب أو يُهان؟ إنه مسيح كاذب هذا الذي يقول بخلاص واحد لكل الشعوب. كل هذا باطل! أنا شاؤول الموحد أقول هذا!

* * *

يا لمنظر دمشق البديع من الأفق السرابي! أرى طوق شجر النخيل الزيتي وشجر الآس يكللك مثل ملكة هاجعة فوق عرشها الذي سأهزه هزًا حالما تطأ قدماي أرضك. من البعيد أراك بينما هذه الشمس غير المحتملة تكب ألسنتها علي. لم يعد غطاء رأسي كافيًا ولا حتى عباءتي الخفيفة فيردا عني هذا اللهب الأبيض. أشعر بالغربة في روحي.. إنني أُشوى، وعقلي لا يعرف السكينة. آهة.. إنني أسقط عن صهوة جوادي، وأرتطم بالأرض. أخذت الخيول ترتعش بينما أسرع مرافقي للجمها ودفعها إلى حافة الطريق مترجلين الواحد تلو الآخر متوجهين نحوي. كأن ليلي وصل إلى آخره، ليلي السري الذي يفور بكل كلمة تعلمتها، بكل لغة أنطق بها، بكل حجة فلسفية تسلحت بها، بكل وصية من الوصايا الستمئة في الشريعة

---

(1) عزرا 4-13.

كرست ذاتي لأحميها، بكل مزمور من المزامير الذي كنت أتلوه، وأنا أهز رأسي طربًا. هوى كل شيء معي عن صهوة جوادي. لقد فقدت بصري بغتة أمام ضياء لفّني مثل الوميض السريع ثم بدأ زلزال يهز الفضاء حولي بسؤال لا أعرف جوابًا له:

– "لمَ تضطهدني يا شاؤول؟"

صرخت مصعوقًا أتلفت حولي وأنا ما زلت على ركبتيّ مغمض العينين:

– من أنت؟ من أنت!

– لمَ تضطهدني! من أنت لتضطهدني؟!

وندت عني صرخة قوية وأنا أغالب العماء الذي تسلل إلى عيني:

– أنا المدجج بسيفي وصندل القمع الراسخ، أنا من فوضته إسرائيل وكهنتها بزج كل مهرطق ومخالف في السجون حتى الموت، أنا من أُعطي سلطانًا بتعقب كل المارقين ومطاردتهم حتى في المدن الغريبة، أنا الغيور على الشريعة وكل من ينتقص من قدرها! لاااا لا خلاص خارج الشريعة.. لا... أنا لا أضطهد أحدًا.. أنا فقط أعيد الأمور إلى نصابها!! فقط أعيدها إلى نصابها!! انظر.. انظر، هذا تكليف السنهدرين للحضور إلى دمشق.. اسأل عني المسكونة.. اسأل عني في كل فلسطين والسامرة كم أنا غيور لله. اسأل عني كل مدن سورية البعيدة.. الكل يعرف بطشي من شدة غيرتي له!! أنا لا أضطهد أحدًا...!!! أنا فقط أعيد الأمور إلى نصابها!! لا، ليس أنا من تجب معاقبته بعد كل ما فعلت من أجل الناموس... لا...!

– لمَ تضطهدني يا شاؤول! "صعب عليك أن ترفس مناخس"[1]؟

مصعوقًا لا بل خائفًا ما زلت، ونحن على بعد ميل واحد من الباب الشرقي للمدينة. كأس الشر في داخلي فاض عند أقدام دمشق الأممية وتلاشى في الطريق إليها وليس إلى أية مدينة أخرى. ورفعت راسي وأنا مغمض العينين، وسألت هذا الصوت الخلبي:

– ماذا علي أن أفعل؟

– انهض وامض إلى دمشق، وهناك سيقال لك بما عليك فعله.

يا لهذه الرحى التي أزيحت عن عنقي، وأنا في عز ظلمتي وضعفي! لقد اقتادني رجالي المسلحون، وأنا في ذهول المصدوم الذي فقد البوصلة الوحيدة التي لديه.

حين وصلت القافلة، عبرنا شارعًا طويلًا مستقيمًا اسمه "فيكا ريتا"[2]، كما عرفت لاحقًا. أخذوني إلى فندق يملكه يهودي حيث

---

(1) "مناخس": الجزء الحديدي في نهاية العصا، الذي به ينخس الشخص الثور أو الحصان ليثيره. والمقصود هنا أنه من الصعب مقاومة الله ومخططاته وأن يبقى سعيدًا. أعمال الرسل 9.

(2) فيكا ريتا: وهو الشارع المستقيم كما أسماه العرب لاحقًا. والشارع جاء بناءه بما يتناسب وأسلوب بناء المدن اليونانية والرومانية أي أسلوب البناء الشطرنجي الهلنستي والمقسم بالشوارع الصغيرة إلى أحياء صغيرة، بالإضافة إلى الشارعين الرئيسيين واللذان يُدعيان كاردوس (الشارع الشمالي الجنوبي) (باللاتينية: Cardus Maximus) وديكومانوس (الشارع الشرقي الغربي) (باللاتينية: Decumanus Maximus) ومهمتهما قسم المدينة وتسهيل حركة السكان بالاتجاهات الأربعة وصولًا إلى أبواب المدينة. ويكيبديا.

مكثت ثلاثة أيام لم أتناول فيها لقمة أو شربة ماء. لقد رفضت كل ما قدمه لي هذا الفندقي لكي يرفه عني. إنني أولد وأكتمل. أذوي ثم أنهض من ناري لأذوي مرة ثانية. هكذا مرت الأيام الثلاثة إلى أن سمعت قرعًا على بابي. لقد أتوا لكي يأخذوني إلى رجل اسمه حنانيا كان ملتجئًا إلى دمشق بسبب الاضطهاد. كان الرجل على لائحة الموت خاصتي. لقد ارتعد حنانيا من رؤية فتكت به في ليلة سابقة على وصولي. كأن هذه الرؤيا هيأته لما سيحدث، وحذرته مما هو قادم. إن سمعتي وصلت إلى كل الأصقاع، وكذلك بطشي. ولهذا قبل أن ألتقي به ويضع يده علي، لا بد أنه صلى فتدفقت في قلبه شجاعة وفي قلبي قبول سريع. حين قال لي "يا أخي" وقعت القشور عن عيني فأبصرت، ثم أخذوني إلى نهر بردى[1] وسكبوا ماءه علي فعشت من جديد.

* * *

أخذ اشتعال يتقد في قلبي، ويتنامى، ويحتدم على الرغم من برودة مياه بردى التي انهمرت على روحي. لا، لست مصابًا بالصرع ولكن النبوءات تحققت كلها في الطريق إلى دمشق. إن هذا الظهور الخاطف مثل البرق جعله، جعل صوته، يرسخ في

---

(1) نهر بردى: ينبع من بحيرة بردى في جنوب الزبداني على سلسلة الجبال السورية شمال غرب دمشق ويصب في بحيرة العتيبة جنوب شرق مدينة دمشق، مارًا بها وبمدينة دمشق القديمة والغوطة. عرف النهر قديمًا باسم نهر باراديوس أي الفردوس، كما أطلق عليه الإغريق اسم نهر الذهب. ذكر اسم بردى في الكتاب المقدس (التوراة) وفي مراجع تاريخية أخرى.

داخلي. قال لي بصوت حاسم: لن تعرفني إلا إذا دخلت إلى عمقك أنت. إني في روحك. سوف تسمع عني كثيرًا من تلاميذي، وربما ممن جررتهم إلى المحاكم، وقيدتهم بالسلاسل. ستسمع عني من بطرس، تلميذي، الصخرة أدعوه، ومن بقية الإخوة الذين كانوا معي وعاشوا المراحل كلها، لكن يقينك هو في قلبك المشتعل، لأنني لست في أي مكان آخر. ابعثني من الداخل، وتعرف علي جيدًا. لا تبقَ أعمى ولا جزعًا. إني أعطيك سلطانًا على الحرف والكلمة، إني أعطيك سلطانًا على العالم لتكون حرًا. وهكذا، أخذت أتحول وأتبدل بهدوء، وأنا مقيد بسلاسله!

في السبت التالي، وقفت أمام المجمع في دمشق متحرقًا أشرح كيف حدث كل هذا الانقلاب. حكيت قصتي كلها، قلت: إن ما تبحثون عنه هو ها هنا. ما تنتظرون وما تصبو نفوسكم إليه. تحدثت كثيرًا باللغة التي يفهمونها، ويحبونها. طويت في حديثي الكثير من الحب والتفسير والألفة. كنت صادقًا حتى الانتحار وشفافًا حتى الاختفاء، لكن يااااااا لأحلام إسرائيل الصعبة والقاسية! من أين لناموسك أن يتنبأ بها! إنني اليوم في عرفه" رجلٌ خطرٌ". إنني المهدد له ولكل الخائفين عليه. أما أتباع نبي دمشق في هذه المدينة فقد رأوا فيَّ قديسًا، يا للمفارقة والعجب! أيها الناموس الذي لا تنثني، أو تنكسر، لقد رأيت وجه النار أمامي وسمعت صوته!

بعد هذه الهزة العنيفة في روحي، رأيت أن أترك كل شيء وأرحل، فمن يقدر على جبل الجليد هذا! إن أسلحتي ما زالت في مهدها بحاجة للصقل، وعقلي بحاجة لكي يعرف أكثر. لقد شفيت

روحي من القمع، لكني مع ذلك بحاجة إلى خلوة لكي أهدأ وأستكين وأجمع أفكاري، وأرتبها. لقد ضاع خطاب السنهدرين، تلف أمر القتل، وتلفت معه ثيابي الرومانية في كثبان الحقيقة. لقد مدّ لي يده في دمشق فبدل حالي وأحوالي، وجعل الدنيا تنقلب معي رأسًا على عقب. المدن الجليلة تمنح القداسة لقاطنيها. نصبح قديسين بسبب مدن بعينها، وكذلك نصبح قتلة بسبب مدن أخرى. أنا في دمشق قديس وفي أورشليم قاتل، أما هذا الذي كنت أطارده فقد غدا الدنيا كلها بالنسبة لي.

***

قررت الرحيل إلى الصحراء الجبلية قرب دمشق. ما الداعي للعودة إلى أورشليم؟ إن اضطهاداتي ما زالت ماثلة في ذاكرة الكثيرين. حتى اليهود لن يفهموا كيف حدث هذا. أما تلامذة ابن الناصرة، نبي دمشق، فبأي إحراج سوف ألقاهم ويلقونني!!! لأذهب إلى الصحراء. بين يدي صنعة جيدة أعتاش منها. إن القبائل الكثيرة التي تعبر بها، تتوقف لكي تشتري بيوتها المتنقلة من الخيم وأنا صانع ماهر أعرف كيف أحبكها، وأشبكها من وبر الماعز بحيث تصبح ملجأ عظيمًا من المطر والحر. إنني أريد أن أختمر بالمعرفة والتوحد. أريد خلوة معه ومن أجله. أريد أن أعرف كل شيء من الداخل أولًا، وسنوات الصحراء ستسمح لي بذلك. يا أيتها الفكرة الأخاذة التي انفجرت في روحي، وجعلت الإلهي يتحد بالإنسان، إنني مخطوف بك، أنا السكران الذي لا سلطان لهذا العالم المارق عليه.

إلى دمشق مرة ثانية

بعد سنوات الصحراء الطويلة، عدت إلى دمشق، المدينة التي منحتني شرف التغيير والعبور، والتي أزاحت عباءة الكره من فوق كاهلي، وفتحت لي صدرها الرحب. عدت إليها بشوق المترقب وبروح مختمرة بالمعرفة وهدوء راسخ في قلبي. لقد تغيرت الظروف في المدينة؛ انتهى حكم تيباريوس[1] الصارم بينما كان كاليغولا[2] إمبراطورًا ما زال في بدايته. لقد أرسل ممثلًا عنه إلى دمشق ليسلمها إلى الحارث ملك الأنباط البدوي. حين دخلت المدينة كان الجنود البدو يملؤونها، يروحون، ويجيئون على النواصي وبين الناس. أما

---

(1) تيبريوس قيصر: أو طِيباريوس قيصر (16 نوفمبر 42 ق.م – 16 مارس 37م) – واسمه الكامل تيبريوس يوليوس قيصر اوغسطس. هو الامبرطور الروماني الثاني الذي حكم من عام 14م – 37م. وكان خليفة اغسطس قيصر وابنه بالتبني وصهرًا له. في فترة ملكه، أشرف هيرودس انتيباس على بناء طبريا، والتي سميت تيمنًا باسمه، على بحر الجليل إجلالًا له.

Tiberius | Biography, Accomplishments, Facts & Death.

(2) كاليغولا: كان الإمبراطور الروماني من 37 إلى 41م. ولد في الأسرة الحاكمة الأولى للإمبراطورية الرومانية، والمعروفة تقليديًا باسم السلالة اليوليوكلاودية. بعد وفاة تيبيريوس، خلفه كاليغولا كإمبراطور في عام 37م. رغم أنه يوصف بأنه إمبراطور نبيل ومعتدل خلال الأشهر الستة الأولى من حكمه. بعد ذلك، تركز المصادر على قساوته وساديته وبذخه وانحرافه الجنسي، وتنشر عنه صورة الطاغية المجنون. في أوائل عام 41، تم اغتيال كاليغولا كنتيجة لمؤامرة قام بها ضباط من الحرس البريتوري، وأعضاء مجلس الشيوخ، والوزراء.

Suetonius, The Lives of Twelve Caesars, Life of Caligula, Suzan Wood, 1995.

اليهود فقد مُن عليهم بحرية كبيرة للتحرك والعبادة. تراضٍ مؤقت أراه منقلبًا إلى هيجان كبير حالما يأمر هذا الإمبراطور الغريب بنصب تماثيله المذهبة في معبدهم التوحيدي.

قررت أن أمكث لدى الرجل الطيب الذي استضافني في المرة الأولى عندما كانت القشور مازالت تغطي عينيَّ. حالما رآني فتح ذراعيه على سعتهما وغمرني. في المساء أتى الإخوة ليروني فجعلوا قلبي رطبًا وعلى طرف هاوية. إنني أشعر برهبة أن أقول ما لدي كعارف، وها أنا بكامل استعدادي لكي أقف أمام المجمع السبت المقبل رافعًا كلتا يديَّ، واحدة من أجل السلام والأخرى من أجل الهداية.

كان المجمع مكتظًا عندما دلفت من بابه. تطلعت بالجموع فشعرت أن قلبي منتفخ بالترقب لما سأقول. ضرباته كادت تمزق عظام صدري. صعدت إلى المنبر مسلمًا على الإخوة ومنطلقًا في حديثي عن نبي دمشق من دون أن أخرج عما دُوِّن في كتب الشريعة. في الحال، ارتفعت القبضات في وجهي، وأخذت تهتز حالما ذكرت اسمه بالفم الملآن. كأني رميت سهمًا سامًا في قلب كل واحد أمامي. امتلأ المكان بهرج ومرج عظيمين. لقد أخذوا يصيحون "أليس هذا من كان يهاجم كل من كان يبشر به؟ ألم يكن يرسل المرتدين مقيدين بالسلاسل إلى أورشليم؟ إن قتله هو الحلال بعينه، الآن وللتو!".

استطعت بأعجوبة أن أفلت من المجمع بعد أن تجمعوا حولي بوجوههم الغضبى. كيف لي، يا إلهي، أن أبني هذا الجسر المقطوع

معهم! كأنني أتحدث بلغة غريبة. كأنني لم أكن منهم يومًا! ألا يوجد عاقل من بينهم يرى كم الحب الكبير في كلامي!

كل أبواب دمشق السبعة أصبحت تحت أعين حراس الحاكم لمنعي من الهرب وسوقي إلى القتل. لقد تم توصيفي أمامه من قبل اليهود بأنني اليهودي المرتد الخطر، والهارب من مدينة إلى أخرى والمهرطق الجاحد.

خاف الإخوة عليّ، فأخذوا يخططون لتهريبي من المدينة الحبيبة. كانت الجدران العالية المسورة لدمشق، مثل كل مدن الشرق، تحتوي على أماكن للمعيشة بها نوافذ عريضة يمكن من خلالها مهاجمة الغزاة من الأعلى خلال أوقات الحرب. لقد دلّاني الإخوة، تحت جنح الظلام، في زنبيل[1] خارج الجدار العالي حتى لامست قدماي الأرض، وما هي إلا دقائق حتى أخذت أسلك بين المقابر والأراضي المقفرة مكملًا باتجاه الجنوب. إنني ألهج في سري بصلاة عظيمة، وأنا أحث الخطا مغادرًا بينما قلبي يخفق بقوة أسمعه في أذني. لقد نجوت من بين أيديهم، إذا لم تنته المهمة!

(1) زنبيل: القُفَّةُ الكَبيرَةُ، الجِرابُ، الوِعاءُ. معجم الغني.

إلى أورشليم

وأنا واقف على مفترق الرحيل، أحسست برغبة جامحة في السفر إلى أورشليم للقاء بطرس، التلميذ الصخرة. أريد أن أكون قريبًا من الذكريات الحية، من الكلمات الأولى، من رائحة الدم الذي ضرج الخشب المنتصب في الريح. أريد أن أكون قريبًا من الكشف والظهور. لقد سمعت الكثير عن الناصري من مرتدي دمشق الذين كانوا يتحدثون عن كل هذا بشيء من السكر والغبطة.

عدت إلى أورشليم من نفس الطريق الذي سلكته منذ سنوات وأنا في طريقي إلى دمشق. مررت من نفس الأماكن ولكن بروح العاشق المستكين وليس الإرهابي المدجج الحاقد. ما إن وصلت إلى باب دمشق حتى وقفت أتطلع إلى المكان الذي قتل فيه استفانوس حين كنت حارسًا على ثياب الراجمين. دققت على صدري صارخًا:

– أنا هنا يا استفانوس! أنا هنا أيها الحبيب. أنا هنا لأصلح ما أفسدت.

ها إني أدخل المدينة بخطا حثيثة. كل شيء فيها، هي الأخرى قد تغير أيضًا. أتباع نبي دمشق يعيشون في حشر وضيق ومطاردة، أما المجمع اليهودي فربما انتظرني عبثًا وطويلًا فخفت حدة الاضطهاد والملاحقة ضدي. إنني أشعر بالحرج الكبير ممن قد يظنون أن ارتدادي ما هو إلا حيلة للإيقاع بهم مرة ثانية. إنني بحاجة إلى أحد ما ليكون مدخلًا لي إلى هذه الساحة التي تعج

بالخوف والتناقض، بحاجة لمن يثق، ويصدق انقلابي الآن وعلى وجه السرعة. إني بحاجة لكي أثبت نفسي أمام كل الفرق، أن أثبتها من دون استفزاز أو ضغينة، لأن الناموس الحرفي لم يخلصني وإنما هو الذي فعل. إنني مختون بالجسد كما أوصى الناموس لكن هذا لم يوصلني إلى أي مكان. ها أنا بكل تجددي أدخل أبوابك يا أورشليم، فاتحًا ذراعيّ أمام تصلبك وتصلفك وجبروتك الذي يشبه القش المذري في مهب الريح.

برنابا، صديق الدراسة الذي انقلب على الناموس مثلي، وأصبح راسخا في المعرفة، برنابا ذو الروح اللطيفة عثر علي. إن عينه المُدركة وصلت إلى قلبي، فعرفني فلم أعد منبوذًا ووحيدًا وهكذا كان هو صلتي ببطرس. لقد كنت راغبًا بالتعرف على كل الإخوة، ولكن أغلبهم كان على سفر يخطب، ويعلم في المدن البعيدة.

وقفت الدنيا على طرف هاوية، وأنا أعانق بطرس لأول مرة. شممت رائحة المعلم في ثيابه. إن قلبي يخفق في صدري بقوة دهرية، وأنا أتطلع في وجه الرجل الذي عاش المراحل كلها وتقلب في الحب صعودًا وهبوطًا وانشوى قبلي. لقد دعاني في الحال لكي أبقى في بيت مريم، أم مرقس الذي هو ابن أخت برنابا. فتح ذراعيه، وقال: ادخل أنت آمن. يا لهذه اللحظات التي لا تقدر بثمن. إنني الآن أقف على الجهة الصحيحة من التاريخ، الجهة التي يرغب فيها قلبي. إن ثقافتي اليونانية ومعرفتي الجامعية بحاجة ماسة إلى أمية الناصري، نبي دمشق، وإنني كمن قتله العطش في حضور دنّ كبير من الماء.

أربعة عشر يومًا، وأنا مشدود، لا أريد أن تفوتني لا شاردة ولا واردة. أسئلة كثيرة فارت خلال لقاءاتنا المتكررة اليومية أنا وبطرس. قصص وتجارب ملأت حواراتنا. حكيت له عن انقلابي، عن عزلتي معه، عما أفكر به من أجل الانتشار والرسوخ. حكيت له أنني الآن مُسامح مسامحة عظيمة ممن أردت قتله والتنكيل بأتباعه.

– ماذا أنت قائل يا بولس؟ أين أنت وأين أنا؟ ثلاث سنوات لم أفارقه لحظة. رأيت مجده بعيني، ومع ذلك، حين تكاثر أعداؤه عليه، وأخذوه إلى حتفه، خذلته، ونكرته أمام الأمم. تبرأت منه. حلفت إنني لا أعرف الرجل، ولم تقع عيني مرة عليه. اختبأت وراء الجدران وفي الزوايا مثل الفأر. أين أنت، وأين أنا؟

كنت ذاهلًا أمام كل كلمة. لم أعرف بمَ سأجيب سوى بهزة رأس خفيفة.

– هل تعرف ماذا فعل؟

– .....!

– حين عاد، في ليلة الفصح أبلغ النسوة قائلًا: "اذهبن واخبرن التلاميذ، وقلن لبطرس". لي أنا!.. قال بطرس.. سماني باسمي! أنا! كأني لم أنكره، كأني ما وصلت إلى قمة سفالتي في نكرانه!! لو كان المطلوب مني الموت اليوم من أجله لما ترددت لحظة!

***

مرت أيام ونحن في حديث لا ينقطع ونقاش بينما قادتنا أقدامنا

إلى كل الأماكن التي شهدت حياة وموت نبي دمشق؛ صعدنا باتجاه الجتسمانية[1] وكذلك فوق مرتفع الجلجلة[2] حيث بحثت يد بطرس عن المكان الذي انتصب فيه الخشب الذي علق عليه وقال هنا، ضع يدك هنا. يا إلهي! ما زال التراب رطبًا بالدم الحي. أتيت من كليكيا لكي أضع أصبعي في هذا الثقب الكبير. هرّ مجمع اليهود بناموسه في هذا الثقب، وذاب، وذبت أنا معه. بلعنا هذا الثقب وصهرنا وبعثنا. إنني أريد الآن أكثر من أي وقت مضى أن أعلن على الملأ ما يختلج في صدري. لقد بدأت مجادلاتي العصيبة مع الجماعة التي كنت أنتمي إليها سابقًا وحتى أمام الكهنة الذين أرادوا التأكد من صدق نواياي، أنا المشاغب الذي تجرأ ومس بالناموس. إني أرى استيفانوس يُبعث فيّ. بدأت حجارة الكلام تنهال علي بالتخوين والهرطقة. رأيت الكل يتحين الفرصة لينقض علي. لماذا لم أستطع هنا أن أسدد جيدًا، فأصيب هدفي! هل المشكلة في أسلحتي، في مبضعي أم في الجثة التي أحاول بعثها؟ أو ربما في عقلي الذي يبحث عن حل وسط لا وجود له؟

---

(1) الجتسمانية: تقع أرض "الجتسمانية" بمنطقة وادي قدرون الذي يمتد على أربعة كيلومترات مربعة بين القدس وجبل الزيتون. تعني الكلمة باللغة الآرامية "معصرة الزيتون". تمثل أرض الجتسمانية مكان الخيانة عند المسيحيين، ففيها صلى السيد المسيح صلاته الأخيرة قبل أن يشي به لرئيس كهنة اليهود أحد تلاميذته واسمه يهوذا الإسخريوط ثم يسلم للصلب بعد العشاء الأخير مع التلاميذ.

(2) مرتفع الجلجلة: هو المكان الذي صلب فيه السيد المسيح. يقع هذا المرتفع بالقرب من مدينة القدس. الكلمة مأخذوة من اليونانية "كرانيون"، جمجمة. أما الجلجثة فهي كلمة آرامية.

نصحني بطرس وبعض الإخوة بعد أن رأوا الغضب العارم علي أن "أخرج من أورشليم سريعًا"! لقد هربوني سرًا إلى قيصرية[1]. لفوني تحت جنح الظلام، ودفعوني خارج المدينة. لا بد أن البعض قد ارتاح من ابتعاد خطري عنه. إن الشك بي ما زال قائمًا. حتى تمليح كلامي إليهم ببعض التعاليم اليهودية لم يجنبني المشاكسات الكثيرة ولا الوجوه الغاضبة التي أساءت فهم مقاصدي. حتى اليهود الناطقين باليونانية حين سمعوني أخطب في المجمع وبين الناس سعوا إلى قتلي! أين أخطأت؟ هل أنا متعجرف بما لدي؟ هل الطريق الذي اخترته بحاجة إلى تواضع أكبر؟ كيف علي أن أعرف ما علي القيام به!!!

قررت أن أنطلق من قيصرية إلى طرسوس مسقط رأسي. سوف أهدأ هناك قلت في نفسي، وأفكر بما حدث، وأنتظر إشارة جديدة منه.

---

(1) قيصرية: هي أم المدن في فلسطين في أيام العهد الجديد. وكانت تقع على البحر على بعد 44 ميلًا جنوبي عكا و47 ميلًا إلى الشمال الغربي من القدس. وكان لها مرفأ اصطناعي. واسمها الأصلي برج ستراتوا وبنى هيرودس الكبير مدينة هناك سنة 10 ق.م. سماها قيصر إكرامًا لأوغسطس قيصر. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

السنة التاسعة والثلاثون،

أحطّ رحالي في طرسوس بعد طول غياب. في عين الأزل لا يوجد سوى الانتظار الطويل والكبير. الإنسان والخليقة يطبخهما الانتظار. إنه يقوي النفس ويهيئها للآت. إنه يذيب معدن الطاعة الداخلية العنيد ويجعلها في أحسن حال، يجعلها قادرة على قراءة كل الإشارات القادمة. وها أنا أنتظرها هنا. طرسوس لم تتغير وإنما أنا الذي فعلت. إنني أراها بعين مُزال عنها الغبار. حين كنت أعود إليها أيام الدراسة في أورشليم ممنيًا نفسي بأن أكون حاخامًا[1] ومعلمًا للناموس ذا مستقبل عظيم، كنت أشعر وكأنني أحفر الصخر حفرًا. كان حفظ الناموس بنواهيه وأوامره هو الغاية القصوى. الله كان موجودًا في قلب الحفظ وكان علي أن أكون بارعًا في ذلك، أن أكون معلمًا ذا ذاكرة تعرف كيف تضرب على اليد المخالفة، وتقطعها في الحال. رأيت الله كائنًا في حد السيف القاطع. لا يوجد أفكار أخرى محركة ومقلقة سوى الحفظ الطويل عن ظهر قلب وهز الرأس جيئة وذهابًا طربًا بالآيات والمزامير.

---

(1) حاخام (سيد): لقب معلم الدين العبراني قديمًا. وكان اليهود يميّزون بين رب بمعنى سيد، وبين ربي بمعنى سيدي، وبين زبوني بمعنى سيدي الكبير (يوحنا 20: 16). وقد كان الفريسيون يحبون أن يحييهم الناس وينادوهم بسيدي، لأنهم متكبرون يحبون المدح من الناس (متى 23: 7) دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

إنني أقف اليوم فوق تلة الحقيقة الكاشفة فأرى أقوى الأفكار وأعظمها تصل إليَّ مثل الندى، وتتشكل فوق جبهتي بهدوء. هذا هو إعصار الأفكار الحقيقي، لأنه يحدث خلال الانتظار، يحدث خلال النمو والاستنارة البطيئة. لا يوجد حفظ متعب ولا ذاكرة مثقلة ولا روح متنبهة مرهقة تريد أن تصطاد الخطأ اصطيادًا. لا يوجد أقبية تعذيب خفية تحت الهياكل أو المعابد، أقبية تأديب وتهذيب ولا حتى أسلحة أو جنازير ولا سلاسل وأصفاد. إن الله قيدني بالحقيقة والكشف فصرت طيعًا ولينًا مثل الملبن الرطب، من دون سؤال أو جواب، من دون المزيد من السفسطة أو المماحكة العقلية، من دون تعذيب أو جلد روحي، حضر إلي مثل نسمة وأمرني بالحب، فامتثلت.

يا طرسوس، يا أيتها المدينة الرصينة الخليعة، أيتها الوثنية المتمردة، أيتها النابذة لكل شيء والحاضنة لكل شيء، يا من وطئ أرضك كلٌّ من الإسكندر وكليوباترا، ها أنا أنتظر فيك لأكبر وأنمو أكثر. لا يهودي فيك استطاع أن يغدو يونانيًا قحًا. إننا دولة في قلب دولة. أينما رحلنا وارتحلنا نبقى دولة في قلب دولة. نموت، ونحيا فيها، نتزاوج ونتناسل فيها. نتحدث كل لغات الأرض، ولكن لا نخرج منها. الناموس يقف أعلى برجه الكبير بينما نتحلق نحن تحته في الأسفل. إنه يجمع حباتنا المنفرطة في الشتات والأوطان الغريبة معًا. ها إني أعيد النظر فيه الآن، هنا، بل إني فعلت قبلاً في دمشق. إن إعادة النظر كانت أمرًا لا يخطر على بال. أليس اليونانيون من يعيدون النظر، ويشيلون، ويحطون الأفكار

على هواهم. لقد كنت أستمع إليهم وفي قلبي حسرة وشفقة على هذه العقول التي لا تتعب ولا تهدأ، أنا الواقف فوق أرض الناموس الصلصالية الراسخة. نظرات الاحتقار التي كانوا يتطلعون إلينا بها، كنا نقابلها بفوقية لا لبس فيها. ألسنا شعبه المختار!!إن تسابيح صهيون ومراثي بابل وقصص إبراهيم ويعقوب، آبائنا، لهي أبقى من هذا الولع الوثني بهذه الدنيا المارقة. لم أعش قط من دون ناموس. فتنتني الأغلفة المطرزة للوصايا الحرفية والأوامر والنواهي والمراثي. كنت لا أشتهي، ولا ألمس، ولا أذوق. عيوني معلقة بخطوات والدي الثقيلة الرصينة ونظرته المُحاسبة التي طالما نهرتني وأعادتني لهذه الآية أو تلك. صوته يأتي الآن كما في تلك الأمسيات الغابرة حين كان يقص علينا أنا وأختي أن وراء تلك الجبال والقمم العالية شعوبًا سوف تنتهي إلى النار؛ لأنها لا تؤمن بإله إسرائيل.

ها أنا أعود إلى الحياكة، المهنة التي أُحبها، حياكة الخيم من وبر الماعز والمعاطف الكيليكية التي تصلح لكي تنتصب وتكون ملجأً لأولئك التجار والرعاة العابرين متى فارت الطبيعة، وأزبدت. لقد أمنت لي هذه المهنة العيش عندما كنت بعيدًا في الصحراء الدمشقية وجلعت مني حرًا لا أعتمد على أحد في شيء. إني معيل نفسي في اللقمة، لكنه معيلي على النَّفَس. في طرسوس هناك حي خاص بكل مهنة، فيه سوق للمبيع ونبع ماء. سأبقى في حي الحياكة أنتظر. لقد سمعت الكثير من بطرس والإخوة عن موعظة

الجبل[1] لنبي دمشق وعن الأمثال التي كان يخبرها لمستمعيه ليقرب الحقيقة من عقولهم، لكن عقلي يأخذني دائمًا إلى موته، إلى طريقة موته، إلى ظهوراته، إلى التفسير السري الذي سمعته من التلاميذ الذين عاصروه. هذه الأفكار التي تعيش معي أريدها أن تحلق خلف طوروس الذي يشق سهل كيليكيا شقًا، وتطير خلف الجبال المتعالية وأن تنطلق إلى سورية بأسرها والعالم كله، أن تبحر عبر نهر كيدنوس[2] الكيليكي الذي يفلق هذه المدينة إلى نصفين وتجتاح كل شيء في طريقها.

ما زلت أسمع اليونانية في أذني يرطن بها حتى اليهود هنا. إن سانتان، آلهة المكان ذات الزي القروي ما زالت منتصبة مكانها تطل

---

(1) موعظة الجبل: العظة على الجبل وتعرف أيضًا باسم شريعة العهد الجديد، طرح فيها المسيح، إحدى وعشرين قضية تنظيمية تشكل لب الإنجيل والعهد الجديد، موضحًا نقاطًا في شريعة موسى، وملقيًا عددًا من الإرشادات التي يلتزم بها المسيحيون. تدعى العظة، عظة الجبل، لأن المسيح ألقاها من فوق جبل، لعله أحد جبال الجليل بالقرب من كفر ناحوم. الشرّاح والمفسرون، يرون في عظة الجبل لبًا لمواعظ المسيح جميعها، وقد يكون أعاد جزءًا منها في مواضع أخرى من بشارته خارج كفر ناحوم، ولعلها استغرقت عدة أيام، وهي تشكل ثلاثة فصول كاملة من إنجيل متى، وأهمّ ما فيها التطويبات والصلاة الربيّة.
التفسير التطبيقي للعهد الجديد، لجنة من اللاهوتيين، دار تاندل للنشر، بريطانيا العظمى، طبعة أولى، ص.24.

(2) نهر كيدنوس: يسمى أيضًا نهر بردان، نهركيدنوس قديمًا. يقع النهر في مقاطعة مرسين، جنوب تركيا. تقع مدينة طرسوس التاريخية على هذا النهر ولذلك يطلق عليه أحيانًا نهر طرسوس. ينبع بشكل رئيسي من جبال طوروس وكان مجراه المائي يمر مباشرة عبر المدينة ولكن تم تغيير مساره اليوم. ويكيبيديا.

على المدينة وأزقتها، على أرصفة الميناء الممتلئ بالمستودعات والمراكب وصناديق البضائع الكثيرة , وكذلك البحارة القادمين من كل الأصقاع. إنها آلهة الحقول الموشومة على نقود طرسوس وحامية الفلاحين. إنني أتذكر احتفالاتها وأنا صغير حين كانوا يحملونها على عربة مزدانة من ورود وأزاهير تنمو في سهول الجبال، ويطوفون بها الأزقة باتجاه وسط المدينة حيث يتجمع السكان حولها يزغردون لينتهي كل هذا بحريق كبير. إنه الموت الذي يلي الخصب، ليبدأ بعده الاحتفال بالحياة، وأي احتفال! لم يكن لدعارة الوثنيين أية حدود. لم يكن عقلي الناموسي يقبل مثل هذا الجنون الفالت من عقاله، ولا يقبله اليوم. حين كنت أتفرج على كل هذا من البعيد، كنت أشعر بالشفقة على طقوس من دون عقيدة. إنني أفهم هذه الدورة الطبيعية للحياة الآن. حتى إنني أراها في كل فكرة دارت في رأسي عن نبي دمشق. رأيتها في موته، في ابتعاثة داخلي واستمراره في عقلي، لكني لا أقبلها خارج هذا النطاق.

إنني أعرف الأسرار الوثنية كباطن كفي. طرسوس المدينة الحبيبة، ليست بنكرة. إن ذاكرتي مليئة بذكريات ليست ببعيدة عن حياتي فيها. كان هناك شيخ جليل وقور ذو معرفة غزيرة اسمه أثينادور يعيش في المدينة. لقد عمل الرجل كثيرًا من أجلها فنظمها تنظيمًا دقيقًا وخلق جوًا جيدًا من أجل المعرفة والثقافة. هناك نصب له يتحلق حوله الطرسوسيون، ويصلون. إن عقلي اليوناني يقبل أن أُكرم من ينبري مدافعًا عن الأخلاق. لقد تحدث أثينادور عن الضمير وكذلك الوجدان، وإني لهما أنتمي، وأجل. إنني أعود بذاكرتي إلى خطبه

الأخلاقية التي كنت أصغي إليها من دون فهم وأنا صغير، أعود إلى الخطباء الرواقيين[1] والكلبيين[2] الذين كانوا ينتشرون وما زالوا على طول نهر كيدنوس وفي الساحات العامة والطرقات يناقشون، ويشرحون الفلسفة والدين والأخلاق، وأتذكر مجادلاتي معهم، وذلك في أوقات العطل التي كنت أعود إليها من دراستي في أورشليم. كان الناموس سيدي وحبيبي، وكنت غير قادر أن أخرج منه بيسر، وأحلق فوق القضبان التي نصبها طويلًا على روحي. كان عليّ أن أعرف أكثر وأنهل أكثر من معلمين قرروا أن يطيروا بجناحين حرّين بدل المكوث في سجن العقيدة. إنهم في طرسوس وكردوس وأنطاكية وصور وعسقلان وباريسا يتجولون، ويتحدثون بكل أريحية عن مواضيع الروح والعقل. ربما لو فعلت، لكان جدار الصوان قد تخلخل قليلًا، وتداعى فيَّ ولما بقيت مركونًا مثل جيفة في أحشاء التقليد والإرث والدم معصوب العينين.

ما زال هناك إلى اليوم على ضفاف نهر كيدنوس بل وفي كل مكان خطباء يحاضرون عن الفلسفات، ويفسرونها، ويردون على أسئلة المتحلقين والمريدين. إنني أقف في آخر حلقة أستمع

---

(1) رواقيون: الرُّواقيَّة هي مَذهَبٌ فَلسَفيٌّ هِلِنِستِيٌّ أنشأه الفيلسوفُ اليونانيُ زينون السيشومي في أثينا ببدايات القرن الثالث قبل الميلاد. تندرج الرواقية تحت فلسفة الأخلاقيات الشخصية التي تُستَمَدُّ من نظامها المنطقي وتأملاتها على الطبيعة.
Sharpe, Matthew. "Stoic Virtue Ethics". Handbook of Virtue Ethics.

(2) كلبيون: الكلبية أو الفلسفة التشاؤمية هي مذهب فلسفي أسسه الفيلسوف أنتيستنيس في القرن الرابع ق.م.، وهو أحد أتباع الفيلسوف اليوناني سقراط.

إلى البحث الجدلي عن الخالق والنقاش المرّ حوله. إن اليونانيين يطلبون الحكمة، ويستثيرون العقل بالجدل. الفلسفات لا تفهم بلغة القلب. إنها ضرب من الافتراض الذي يحتمل الصواب والخطأ. إنني أستمع بانتباه إلى كلامهم واستشهاداتهم، وأرى الغرور الدفين في أصواتهم حين تصل إلى نهاية كل فكرة بالإفحام! إنهم يتركون الجمع حولهم مع المزيد من الأسئلة، وكأنها تتناسل من دون توقف من غير أن تصل إلى نهاية نفق ما. إنني مختلف أيضًا الآن. كنت مختلفًا بالناموس، والآن أنا مختلف بسبب الحب المغيَّر اللامشروط. إنهم يشكون، وأنا لا. إنهم يجادلون، وأنا لا. إنهم يفترضون وأنا لا. سأترك الانتظار ليحيلني إلى عجينة تختمر، وترتفخ ها هنا في طرسوس.

السنة الثانية والأربعون

مرت سنوات أربع، وأنا في طرسوس ومناطق الجوار القريبة أتنقل، وأقيم، ليأتي برنابا في أواخرها لكي يعثر عليّ فيها. لقد أتى لكي يطلب مساعدتي في تعليم الأنطاكيين السوريين المنقلبين على الوثنية. إذًا، لقد دقت الساعة، وها هي الإشارة تصل بأكثر الطرق هدوءًا مثل الندى الذي يتشكل على الجبهة المفكرة. إن زوبعة الاضطهاد لم تقدر أن توقف تقدم الإخوة، حتى قتل استيفانوس وهروب الكثيرين من أمثاله خارج أورشليم العنيفة كان بذرة انتشار كبير..!

كان الطريق البحري هو أقصر درب، فسلكناه أنا وبرنابا. عبرنا نهر كيدنوس بقارب صغير ثم أوصلنا مركب أكبر ذو حمولة وبضائع من ميناء طرسوس إلى سلوقية[1] ومن هناك توجهنا إلى أنطاكية سيرًا على الأقدام. لم يتوقف حديثي مع برنابا طوال الطريق. لقد شرح لي كل ما حدث في غيابي. كنت أصغي بانتباه كبير لكل كلمة، وأسال، وأستفسر.

– هل تعلم يا بولس! لقد تناهى إلى معرفة الإخوة في أورشليم أن وثنيي أنطاكية وحتى اليهود اليونان فيها كانوا ينقلبون.

– .....!

---

(1) سلوقية: بلدة ومنطقة تابعة لمحافظة مرسين جنوبي تركيا، على بعد 80 كم (50 ميل) غرب مدينة مرسين. تقع بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط على ضفاف نهر جوكسو، الذي ينبع من جبال طوروس القريبة.

– هل تعلم! لقد وصل إلى المدينة مُرسلون من قبرص والقيروان ولقد ساعدوا في هدم هذا الجدار الرقيق أصلًا بين الناموسيين اليونان ومن اتخذوا لأنفسهم آلهة من تلك المنتشرة في سورية كلها، وهكذا لم يكن هناك أمامنا من حلّ سوى القدوم ودعم هؤلاء فيها ولم شملهم.

– يابرنابا، مباركة هي اللحظة التي فكرت فيها بي كرفيق لهذه الرحلة. إنها لحظة مباركة حقًا.

لقد سمح لي السفر مشيًا بين المدينتين القريبتين، أن أتحضر وأمتلئ بما هو قادم. وصلنا إلى جبل، لاحت من قمته أمامنا ثلوج جبال طوروس بجلال ودعة. تطلعت إليها وتذكرت ما كان يردده والدي من أن هناك شعوبًا وراء هذا الأفق العالي سوف تضيع إذا لم تؤمن بإله إسرائيل فابتسمت. رأيت برنابا يسترق النظر إليّ كل هنيهة. إنه عارف ما بنفسي مثلي تمامًا.

انحدرنا من الجبل باتجاه التلال التي غطتها الكروم ومنها إلى سهول منبسطة ملأتها أشجار الليمون والدراق بظلال كثيرة. لقد توقفت، لألتقط أنفاسي، وأتأمل وادي العاصي، وأسمع من البعيد أصداء ضجيج أنطاكية وأصوات قرقعة العربات والناس والباعة والتجار تتناهى إلي. قال لي برنابا إنها ثالث أكبر مدن الإمبراطورية، وإنها مفتوحة على التجارة البحرية والصحراوية من كل الجهات، فيها تتجلى كل ميوعة سورية ورفاهيتها، وكذلك كل جنون الشرق العابث؛ حيث تعثرُ على كل شيء فيها يتمازج، ويتماهى مثل كوكبة صوف؛ الفجور والحكمة، العلم والجهل، الدعارة والقداسة!

– هل تعرف ماذا قال الشاعر جوفينال عن هذه المدينة؟

–.....!

– يقول:

"منذ سنوات والعاصي السوري
يسكب مجاريره في نهر التيبر
لغته، عاداته، مزاميره وقيثاراته الغريبة
بأوتارها العريضة ودفوفها الأصيلة،
وكذلك العاهرات اللواتي يتسكعن حول حلبة السباق!
العاصي الفاحش،
يغوص تحت الأرض ناقلًا ثروته إلى شواطئ
نهر التيبر الجائع،
مُسمنًا إيطاليا بالعاهرات الأجنبيات".

إذا كان هناك مدينة تحتاج إلى مساعدتنا، يا أخي بولس، فهي أنطاكية!

***

أخيرًا، نقف على أبواب المدينة. يا لهذا السخاء الملوكي الذي بنى أنطاكية العجيبة. إن شغف الأمراء ببناء المدن الكبرى مبرهن عليه ها هنا في كل حجر منصوب ومنقوش. هذه هي سمة شخصية الأباطرة؛ الرخام والحجر والصلصال. يتعملقون من خلال الأبنية القاسية ثم يتركون، بعد رحيلهم، تماثيلهم للتقديس. أما القلوب فتبقى موحشة، لا يدخلها الله ولا حتى نسمة رطبة. إنهم يغلقونها بقفل كبير يصدأ مع الوقت، خوفًا من التغيير الصعب

والمضني. إن قدري أن أتوجه إلى القلوب المُستقبلة، وأما تلك التي أضاعت مفتاحها، فإنني لمصارعها حتى النصر، فتفتح مرة واحدة وإلى الأبد.

مررنا عبر جادة عظيمة ذات أعمدة مزخرفة ضخمة تقسمها إلى ثلاثة شوارع متلاصقة تأخذك من شرق المدينة إلى غربها. لقد كنا نسير في الجادة المخصصة للمارة والفرسان والعربات الصغيرة. أما الوسطى فقد لمحت فيها العربات الثقيلة تتحرك محملة بالبضائع والناس. كل هذه الجادات تنتهي عند سفح جبل ينتصب على قمته تمثال ضخم لجوبيتر قرب المدينة. كنت أحث خطاي صامتًا أفكر في مهمة الأيام القادمة بينما عيناي تمسح كل شيء نمر بالقرب منه. لقد لمحت إلى الجنوب من خط سيرنا، نهر العاصي يلتف حول جزيرة صغيرة مبني عليها كما هو باد من فخامته قصر الممثل الإمبراطوري في المنطقة كلها. منازل كثيرة جميلة تحلقت حول هذا القصر لا بدّ أنها للإداريين في الدولة والعسكريين. المدينة محصنة بأبراج لا تعد، ولا تحصى. إن روما تعمل من دون توقف. أباطرتها يتركون بصماتهم على الحجر، على الحمامات العامة وحلبات السباق والأقنية المائية وعلى القصور والحصون والمعابد. كل هذه موجودة في أنطاكية وكذلك التماثيل الصامتة المؤلهة.

وصلنا إلى قلب المدينة عند تنامي الظلام في الأصيل لكن الإضاءة فيها جعلتها تبدو مشعة، وكأنه النهار. حركة وصخب

أينما مشينا. الناس تعمل في متاجرها تحت أضواء مبهرة بينما تعلو بعض الأصوات بالغناء يرافقها الناي والطبلة، لا بد أنها تأتي من حانات أنيرت بقوة لدعوة المارة. قرأ برنابا أفكاري.

– انتظر حتى ترى مدينة دافني[1]! يقولون إنها جنة على الأرض تمتلئ بشجر الغار الباسق والقناطر الخلابة. إن صوت الموسيقا والعزف تسمعه في كل مكان مثل هنا تمامًا! تعثر فيها كذلك على كل أنواع البشر مثلها مثل أنطاكية؛ سحرة، مبشرين، مشردين، مجوس، هزليين يطلقون النكات أمام المارة، كهنة كذابين وراقصات وممثلي مسرح. الكل هنا يراهن، ويضارب، ويبذخ بجنون.

– إنني أشعر بصعوبة مهمتنا وسهولتها في آن. ألا ترى ذلك أيضًا؟ مع ذلك، لا أظن أن أحدًا يريد أن "يموت" بسبب هذه السعادة الزائفة! ألا تعتقد؟

– إنك تتحدث بمنطق غير مألوف يا بولس. الناس تعتقد أن الملذات هي نهاية المطاف. بل إنها السعادة بالذات. حتى أديانهم وعباداتهم تؤكد هذا الأمر، وتأمرهم به. صعب أن تخالف الآلهة.

– الصعوبة الكبرى هي الناموس، يابرنابا وليس الآلهة.

– صحيح! لقد ربطنا فيه وجودنا، واعتبرنا أنفسنا نكرة من

---

(1) دافني: تبعد بضعة كيلومترات عن مدينة أنطاكية. فيها هيكل الآلهة دافني وسط بستان من أشجار الغار. كانت دافني فتاة تحوّلت إلى شجرة غار إثر ملاحقة أبولو لها بحسب الميثولوجيا الإغريقيّة القديمة. كانت كاهنات دافني مكرّسات لممارسة الخطيّة كنوع من التعبُّد لها.

دونه، وكان هذا هو الخطأ الكبير. حتى لو كان اليهودي يونانيًا أو رومانيًا أو حتى سوريًّا فهذا أمر لا يعني شيئًا في نهاية المطاف بالنسبة له. كأنك تحرك الحجر القديم الراكد من دون جدوى!

– يا برنابا، لقد أشار لي نبي دمشق بتحريك هذا الحجر والويل لي إذا لم أفعل. إن في قلبي اشتعال لا يتوقف. لقد غادرني الخوف وفقد هذا العالم المارق سلطانه علي.

تطلع إلي برنايا، وكأنه يراني للمرة الأولى.

* * *

إن أنطاكية تلفني بكل تناقضاتها وعنفوانها. كم كانت لحظة مباركة حين أتى برنابا لكي يعثر علي في طرسوس! سوف نجد طريقنا في هذه المدينة بين الرومان واليونان والمواطنين المائعين والناموسيين والوثنيين، بين النساء الغواني المتبرجات الحاسرات اللواتي يطفح من عيونهن الإغراء، وكذلك الأمهات اللواتي يعملن مع رجالهن في الحوانيت الصغيرة والمهن التي تجد مكانها على قارعة الطريق. سوف نجد طريقنا بين العبيد بوجوههم النحاسية والعابرين وعمال المراكب والتجار المنكبين على دفاتر الحسابات ومكيال الأوزان. سنتوجه إلى شارع ستيفون[1]، وهناك سوف نلتقي الإخوة، ونقرر ما يلي وما يترتب.

إنني أعرف في قلبي أن قوة الكلمة تطغى على قيمة المكان. لسنا معتبرين المكان قبل الكلمة، وهكذا فإننا بدأنا عملنا فوق

---

(1) شارع ستيفون: الحي المسيحي في أنطاكية.

أسطح المنازل، في الساحات الصغيرة، بين البساتين وفي هدأة الحقول وحول ضفاف العاصي. كنت أتحدث بقوة الكلمة التي تخرج من فمي فيتلقفها جوعى الحقيقة ووثنيو هذه الحضارة بنهم. كان هناك جدل وأخذ ورد وتفسير وشرح كثير لدرجة أصبحت، شيئًا فشيئًا، أعرف باطن كف هذه المدينة الأبدية. إنني لا أقدم عالمًا مثاليًا في وعظي اليومي وإنما دعوة إلى التفكير. لقد رأيت الكثيرين يمرون بالقرب من هذه التجمعات التي قمنا بها، سكارى وكهنة من معابد وثنية قريبة وفرق تعبر تعزف، وترتل لأحد الألهة، كلهم كانوا يتطلعون بفضول، وهم يعبرون بالقرب منا. أجزم أنهم لم يسمعوا عبارة "افعل" أو "لا تفعل" تُنطق من فمي. إن قوة كلمتي ليس فيها إرغام؛ لأنها ليست نسخة عن الناموس ولا حتى مكمل له، وإنما هي معرفة في أفق آخر.

أخذت كنيسة أنطاكية تجذب الكثير من المبشرين إليها. إن الأخبار المشجعة التي كانت تصل إلى أورشليم قد حثت كل أولئك إلى القدوم. أصبحنا نكبر، وننمو في هذه المدينة الأممية الكبيرة.

* * *

"استعدت وعيي للحظات. ما زلت أقف فوق تلتي الأوغاريتية. الألق المبهر جعل من الصعب عليّ فتح عينيَّ على سعتهما. روح بولس ما زالت تلبسني وكذلك مئزره وعباءته. لا بد أنني أرجف من قوة وحدة ما يحدث. إنني أشهد ما كان وما لم يكن. أخذت طيور كثيرة تغط حولي، طيور مهاجرة تحط بقلوب شديدة الخفقان من طول السفر وشغف الوصول. قلبي أيضًا يخفق بقوة بسبب

الترحال الطويل في الزمن الذي يبدو أنه لم ينته. إن عربتي ما زالت على سكتها واقفة تهتز اهتزازًا خفيفًا، وكأنها لم تنطفئ. تُرى عما كنت أبحث؟

– ستعرفين حالما تعثرين عليه.

وتطلعت حولي مدهوشة:

– ... هذا الصوت!!!! أعرفه...! من أنت!!!

كررت، من أنت! وأنا أتلفت حولي لكن من دون جدوى! ربما سأعرف ما أبحث عنه حالما أعثر عليه!!!!! وكيف لي أن أعرف أن ما سأعثر عليه هو ما أبحث عنه!!!

– في تلك اللحظة ستعرفين.

– من أنت؟ من أين تصدر؟ هذه الرحلة مرهقة لي! ألا يوجد وسيلة أخرى للمعرفة غيرها!! أخاف أن أموت قبل أن أعرف! أخاف أن أموت فيها ولا أعود!

– ... كأنك لم تموتي أبدًا!!!

اهتزت العربة أكثر تعلن استعدادها للانطلاق من جديد. إنني متشبثة بحجر الأطلال الأوغاريتي الذي أقف عليه بل وملتصقة به وكأننا وحدة واحدة. كأني لست راغبة بإكمال الطريق، أم أنا راغبة فعلًا! الله وأعلم!

انزلقت العربة من جديد على سكتها تتقدم متحركة بي بينما غبت من جديد في سرعتها المهولة وتلاشيت".

ربيع السنة الخامسة والأربعين

الكنيسة الأنطاكية وصلت إلى ازدهار كبير، وهي تعمل كخلية نحل. أخذت أسمع أصواتًا نبوية في أذني أن "ارحل وخذ كلمتك إلى العالم"، وهكذا اجتمعت مع الإخوة في مقرنا في شارع سيفون وقررنا، بعد تشاور، أن ننطلق أنا وبرنابا وابن اخته مرقس إلى العالم.

لقد مشى معنا الإخوة على طول الطريق ذي العواميد الضخمة ثم أخذنا جسرًا على نهر العاصي إلى ميناء سلوقية. أمام السفينة التي تستعد للرحيل، سمعت أنا وبرنابا ومرقس توصيات ودعوات محبة كثيرة ثم صلينا معًا على نية الرحلة، وصعدنا بعد عناق إلى المركب المغادر. لوحنا كثيرًا، ونحن على سطحه المهتز، وانطلقنا.

لقد اقترح برنابا أن نتوجه إلى قبرص أولًا، فوافقت. لست مشترطًا بأية مدينة نبدأ، لأن هدفي هو كل المدن التي أقدر أن أصل إليها؛ سورية الرومانية وماحولها وصولًا إلى روما وبقية العالم. لم أعد أطيق الانتظار؛ إنني أتحول إلى عاشق يتلهف للقاء محبوبه.

خلال أيام قليلة من الإبحار، بان شاطئ قبرص الشرقي في الأفق عاليًا. إن مدينة سلاميس[1] هي وطن برنابا الذي ولد

---

(1) سلاميس: مدينة على شاطئ جزيرة قبرص الشرقي وتقع على بعد ثلاثة أميال شمال مدينة فاماغوستا الحالية على ضفة نهر بديئيوس الذي يجري داخل الجزيرة وحتى مدينة نيقوسيا، العاصمة الحالية والتي كانت ميناء عظيما عامرًا بالسكان أثناء الحكم الروماني واليوناني، وكان أهلها خليطًا من اليونايين والفينيقيين الذين كانوا يتاجرون مع أهل صقلية وسورية. كان سكان هذه المدينة يتعبدون الإله زفس.

وترعرع فيه. يجب أن أعترف أن أصدقاءه وأقرباءه استقبلونا بفرح كبير. مع ذلك، بقينا بضعة أسابيع قبل أن نتمكن من الوعظ في مجامع المدينة. إنني أضع نصب عيني أن أُبقي خطابي لليهود مرتبطًا بالتاريخ، أن يقول لهم إن هذا الناموس الذي يخافون عليه مثل بؤبؤ عينيهم إنما وجد ليبقى، وإن نبي دمشق هو تحقق لما أتى في الكتب، لأنطلق بعد ذلك، وبالعقل إلى دحضه من دون أن ينتبه أحد. خمس عشرة مدينة في قبرص زرنا مجامعها، ووعظنا ليهودها ولوثنييها المنقلبين. لقد سهّل علينا الأمر معرفة برنابا بهذه الجزيرة التي ولد فيها. دخلنا ليماسول وبافوس وسولوس[1] ومدن غيرها. إن الجزيرة غاصة، مثلها مثل بقية البقاع، بالديانات الشرقية المصرية والفارسية والبابلية، والجنس المقدس هو جزء منها. أنا لا أحتقر الأساطير لأنني أفهم أنها تفسير الشعوب لما لا يعرفونه، ولا يفهمونه. إن خلافي هو مع السحر الذي تنقلب إليه هذه الأساطير بخفة يد عراف، وكذلك مع الاحتفال الماجن بها. إذا لم يكن للدين هدف أخلاقي فإنه ينتهي إلى السحر. إن في جعبتي سهامًا كثيرة لضرب هذه المجوسية وسحقها، مع ذلك فأنا لا أقترح ذلك من خلال العجائب وإنما من خلال قوة الكلمة. الكلمة هي العجيبة بذاتها وهي أمضى سلاح لدي، ولقد استعملتها أمام الوالي الروماني في الجزيرة بحضور عالم مجوسي يهودي. لقد رأى هذا الوالي كيف

(1) ليماسول، بافوس، سولوس: مدن في جزيرة قبرص.

يقف السحر عاجزًا أمام سؤال بسيط من أسئلة القلب والعقل. إن يده الممدودة باتجاهي أوقدت فرحًا مكبوتًا في قلبي، بينما خرج العالم اليهودي مثل أبكم لا يعرف إلى أين تقوده خطاه.

منذ هذه اللحظة سوف ألاقي هذا الكون الروماني بلحمي الحي، من دون عجائب أو سحر أو ناموس، وإنني لضارب بسيفي على كل هذا، ومنقادٌ مثل نسيم ناعم بقوة الكلمة.

* * *

انطلقنا، أنا وبرنابا ومرقس، في خريف العام نفسه باتجاه بلاد الغلاطيين[1]. كان علي أن أعود إلى كيليكيا لكني لم أفعل. كلّما فكرت بالأمر أرى حجرًا كبيرًا يجثم على صدري. إن ما وراء طوروس ما وراءه. هناك، جالية يهودية قد تنكرني إن عدت، هناك أقربائي وأصدقاء الطفولة. شعرت أن علي أن أشرح الأمر لمرقس الأصغر منا في السن والتجربة.

– اسمع يا مرقس، هناك وراء هذه الجبال تقع طرسوس، مسقط رأسي وكذلك أنطاكية. أقول لك إن فيها أُناسًا طيبين قليلي العناد

---

(1) بلاد الغلاطيين: غلاطية ولاية تقع في القسم الأوسط من شبه جزيرة آسيا الصغرى. وقد اشتق اسمها من لقب القبائل الغاليّة التي هاجرت إلى آسيا الصغرى بعد أن تركت موطنها الأصلي في غرب أوروبا واستوطنت اليونان مدة من الزمن، قبل ميلاد المسيح بعدة قرون. ولم تبق حدود غلاطية ثابتة، بل كانت تتبدل، وكان حجمها يتضخم ويتضاءل، حسب قوة ملوكها. وفي مطلع القرن الثاني ق.م. خضع الغلاطيون، مع باقي آسيا الصغرى للرومان إلا أنهم احتفظوا ببعض مظاهر استقلالهم، وخاصة في الإدارة الداخلية. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

وآخرين صعبي المراس. في تلك الأصقاع توجد سهول بمفيليا[1]. أعرف أن مناخها سيئ والأمراض الغريبة تفتك بالناس. مع ذلك، دعنا نمر سريعًا من هناك، والله سيحمينا.

لم يرد مرقس. لا أعرف إن كان اعتراضه على هذا الاقتراح أم لأن قيادة الرحلة أصبحت لدي! جعلت أشرح له مرارًا أننا أتينا لكي نبشر بين الشعوب الأقسى بربرية لكنه انبرى يقول بحدة:

– هل تعلم أن تلك المنطقة مليئة بلصوص يسلبون المسافرين ويقتلونهم ثم يرمونهم في الشعاب الكثيرة في تلك الجبال؟ إن هذا يضع حياتنا جميعًا في خطر! سنلقى حتفنا قبل أن نبدأ! كيف يكون هذا!

بقيت لوهلة أفكر من دون أن أجيب. إني أعرف أن "برجة بمفيليا" ذات طابع عسكري يديرها حاكم برتبة متميزة. أما طبيعتها فكانت تملؤها الأشواك العالية وأشجار الصنوبر والوزال وكذلك الأرز في المرتفعات الأعلى. بقي مرقس على موقفه الرافض:

– لماذا نذهب إلى هناك؟ ماذا يوجد وراء تلك الجبال؟ لا

---

(1) سهول بمفيليا: وتشمل، في الجغرافيا القديمة، سهل يمتد من منحدرات طوروس إلى البحر الأبيض المتوسط. تقع المنطقة في جنوب آسيا الصغرى، بين ليقيا وكيليكيا. كان يحدها من الشمال بيسيديا، وبالتالي كانت دولة ذات نطاق صغير، لها خط ساحلي يبلغ حوالي 75 مترًا فقط بعرض حوالي 30م. كان لدى البامفيليين الأوائل، مثل الليسيين، أبجدية خاصة بهم، جزء منها يوناني، وجزئيًا "آسيوي"، والتي حفظتها بعض النقوش على الرخام والعملات المعدنية. في ظل الإدارة الرومانية، شملت بمفيليا بسيديا والمسالك كلها حتى حدود فريجية وليكاؤنية وهذا هو المعنى الأوسع الذي استعمله بطليموس. موسوعة بريتانيكا

مجمع هناك؟ ولاحي يهودي يحميه؟ هناك فقط لصوص ينتظرون أحدًا ليمر لكي يسلبوه؟

لن يسافر مرقس معنا. هذا ما قاله لخاله، برنابا. لقد أخذ أول مركب متجه إلى قيصرية، ورحل. رأيت دمعًا في عين برنابا وتصميمًا في قلبه للسفر معي، وهذا ما حصل. لم أعرف أن مرقس يفتقر إلى الشجاعة، ولكني أفهم أن من تربى في مجامع أورشليم اليهودية صعب عليه أن يرى سيفًا يهوي على الحبل السري المزيف بينها وبين تعاليم نبي دمشق، ولقد رأى هذا السيف في يدي مرارًا. إن سوء الفهم وقلة التجربة تقتل أجمل العلاقات.

أخذنا طريقنا، أنا وبرنابا، إلى أنطاكية بيسيدية[1]. ثلاثة أيام قضيناها، ونحن نتسلق الجبال، وننحدر إلى الأنهر نعبرها حتى أخمص قدمينا؛ لندخل في غابة أو نحث الخطا باتجاه تلة. صادفنا قطاع طرق كانت سهامهم تنخطف مثل البرق بالقرب من رأسينا. صادفنا قطعانًا من الأغنام ترعى، وكذلك جواميس تتجه إلى زرائبها في السهول. كنا نجمع الحجارة، ونجعل منها أسرة أو مركنا لرأسينا

---

(1) أنطاكية بسيديا: أنطاكية (أو أنطاكيا) كانت مدينة في وسط آسيا الصغرى، في فريجية بالقرب من حدود بيسيدية ولذلك تدعى أحيانًا أنطاكية بيسيدية (أع 13: 14) أو أنطاكية التي في اتجاه بيسيدية. أسس سلوقس الأول نيكاتور، الذي كان واحدًا من قادة الإسكندر الأكبر، هذه المدينة في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ودعاها أنطاكية تكريمًا لأبيه أنطيوخس كما دعا أنطاكية على نهر العاصي بهذا الاسم أيضًا تكريمًا لأبيه. كانت تقع هذه المدينة على طرق تجارية مهمة بحيث جعلها الرومانيون المركز الإداري للجزء الجنوبي من إقليم غلاطية. وقد أسكن سلوقس مؤسس المدينة جماعة من اليهود هناك. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

في الليل البهيم لننام. إن الترحال يخلق رابطًا قويًا مع رفيق السفر. التحديات هي التي تذيب الفروق بين الناس، التحديات المشتركة، المخاوف المشتركة وكذلك الهدف الأخير المشترك. إن علاقتي ببرنابا تقوى يومًا بعد يوم، ونحن نسير مصغين إلى حمحمة لهاثنا وأصوات الطبيعة حولنا. لو كنت أحكم شعبًا متعدد الميول والأديان لما وجدت صعوبة في توحيده حتى لو كان كل فريق فيه يتحدث لغة مختلفة، حتى لو كان كل عشرة أفراد فيه يتعبدون إلهًا مختلفًا. إن التحدي المشترك هو الذي يجمعهم. الخوف على مصالحهم المشتركة هو الذي يجمعهم. الكل يقف أمام جبهة واحدة إذا كانت مصلحته تقتضي ذلك. إنني أبشر بما لا يتقاطع مع ديانة الإمبراطورية الرومانية، وهذا ضرب من الجنون بالنسبة للكثيرين. حتى الناموس يمنع ذلك، إذ إن الدولة تعطي الحق للمجامع اليهودية أن تلم أتباعها حولها. تقول إن هذا حقهم. القانون الروماني يترك الناس لعباداتها فلا تثور، وتتمرد، بل تكون متواطئة معه في كل قراراته. إن هذا الذكاء السياسي يسمح باستمرار الإمبراطوريات والدول. إن طريقي، إذًا، وعرة وطويلة والسبيل إلى توحيد الجميع تحت راية جديدة ليس هدم ما لديهم، وإنما استخدامه بالذات للخروج من النفق.

بعد خمسة أيام على المسير أصبحت كل هذه الجبال والغابات والتلال وراءنا، وكذلك كل تلك الهواجس، ولاحت أنطاكية بسيدية في الأفق.

حالما دخلنا المدينة سألنا، كعادتنا، عن الحي اليهودي. لقد تبرع في الحال صبي صغير يعمل في حانوت للدباغة في إرشادنا.

قال بثقة اتبعوني، فتبعناه. هناك، استقبلنا رجل يحيك السجاد والبسط في بيته استقبالًا جعلنا نبتهج. إن النول في جيبي حيثما أذهب، وأرتحل، بسببه أعمل وأسترزق وأجد لنفسي مصدرًا للعيش. بعد الترحيب ولقمة الوصول بدأت الأسئلة. أردت أن أعرف كل شيء عن اليهود ها هنا وكذلك بقية الملل الأخرى. لقد لمحت، ونحن ندلف المدينة إله القمر "مان أولينوس" معلقًا فوق بابها. كان هناك قرنان نابتان فوق كتفيه بينما كانت يده ترتكز على رمح. لقد عرفت أن "مان" ما هو إلا الآلهة الفارسية ميثراث التي عُبدت في سوريا وبابل. أما هنا في بسيدية، هذه الولاية الرومانية من ولايات غلاطية، فقد دمجوا ميثراث مع مان، إله القمر القديم. الناس هنا لا تعرف تاريخ كل إله تعبده، لا يعرفون إن كان عليه أن يقوم بخلاصهم أم فقط بتلبية متطلباتهم اليومية!! الطقوس أقوى من الآلهة نفسها. تضمحل صورة الإله مع الوقت وتضعف بينما تقوى الطقوس، وتقسو وتتعملق، وتصبح هي كل شيء. العادة أقوى من الكلمة والمعنى. الجميع ينحرون الأضحية للشمس والقمر والنجوم، ويحتفلون بفجور في أعيادها. هذه الدولة من طرفها إلى طرفها غارقة في هذه العبادات. إنني أقف في وجه السحرة والعرافات والكهنة، في وجه آلهة كثيرة متجذرة في العقول التي تبحث من دون جدوي عن جواب ما.

حين أتى السبت، طلبت من الإخوة أن يأخذونا إلى المجمع. يجب أن أعترف أنه لم يكن لدي سوى هذه الطريقة لكي أصل للناس. أينما حللت أتوجه إلى المجمع اليهودي أولًا. إن قلقي

الأكبر هو على أمتي الرابضة خلف قضبان الناموس الوطني، بينما أمكن لي أن أتسلل بيسر وسهولة إلى قلب الوثنيين المتعب من السحر والإيمان بآلهة من صنع أيديهم. في أي مجمع، أقدم نفسي كمعلم للناموس لكي أتمكن من الحديث أو الوعظ، وهذا ما حدث في مجمع بسيدية الذي كان يقع على نهر أنثيوس حيث يمكن للمصلين أن يحصلوا على ماء للتطهير.

ارتدينا أنا وبرنابا وشاحًا أبيضَ مخططًا باللون البني وحالما دخلنا توجهت الأنظار إلينا. قدموا لنا مكانًا شرفيًا قرب الكهنة فرفضناه بلطف. حين انتهت الصلاة أخذ خادم الهيكل ملفًا من الأسفار الموسوية كان موضوعًا خلف الحجاب ثم رفع عنه الغطاء وانطلقت القراءة. حين سكت القارئ أتى الخادم لكي يطلب مني بأمر من رئيس المجمع أن أتكلم.

أخذت مكاني واقفًا أمام الجمع ثم رفعت يدي كما أفعل دائمًا في بداية خطابي:

– أيها الإخوة الإسرائيليون المتقون لله.. يا جنس إبراهيم... اسمعوني!

مثل كل مرة، ومن جديد، أخذت أفكك، بهدوء ومرونة، هذا الارتباط بين الناموس وبين تعاليم نبي دمشق. إنني أنطلق من الكتاب في كل مرة، فأدخل في نبوءات الأسلاف لكي أشرح أحداث الحاضر. التاريخ هو في غاية الأهمية بالنسبة لليهود، من دونه هم غير موجودين. لقد فرح الحاضرون عندما أخذت أتدرج في التواريخ الوعدية كلها لأنتهي بنبي دمشق. لقد أردت أن أركز في

هدفي. عدت إلى المزامير التي يحفظها الجميع عن ظهر قلب، المزمور الواحد والعشرون بالتحديد. هذا المزمور فيه كل الرؤيا عن النبوءة التي تحققت.

– لا أيها الأحباء، لا يوجد آلام سياسية في هذا المزمور وبطل يظهر ليخلص البشر منها! إن كان هذا صحيحًا، لما تركتم هذا البطل لكي يموت؟ ألا ينتهي هذا المزمور بهذا الحلم الأبدي لاستقبال البطل المخلص؟!! لقد أتى، وتم خذلانه بالقتل!

رأيت الجميع يصغي بصمت كبير. إن الشعب اليهودي تخلى عن بطله وذبحه وهكذا سيبقى تائهًا لا أربعين عامًا بسبب هذه الجريمة فقط وإنما إلى الأبد حتى يهتدوا إليه.

هكذا كنت أتحدث في نهاية خطابي من دون لف أو دوران ولكن دائمًا بالعودة إلى الكتاب. رأيت الكل يحملق بي مذهولًا. هل وصلت الصفعة الناعمة! الإرباك كان كبيرًا. إن يهود الشتات هم أكثر انفتاحًا منك يا أورشليم. تُرى، هل هي اللغة اليونانية أم هو ابتعادهم بالمسافة عن المجمع الأم! أو ربما هو الاثنان معًا!

يا لهذه البداية الحسنة! نظرت بشكل خاطف إلى برنابا فألفيت فرحًا حقيقيًا في عينيه. تُرى هل أصبنا الهدف! هل انفتحت بعض القلوب! حين خرجنا من المجمع، التف حولنا حشد أخذ يطالبنا بأن نأتي في السبت القادم لنتكلم، فوافقنا. قضينا الأسبوع كله نستقبل الزائرين الذين امتلأت أفواههم بالأسئلة الكثيرة. إن ما حدث لي في الطريق إلى دمشق كان محور كل الأحاديث التفسيرية! لقد بدأت العقول تتحرك باتجاه معاكس للناموس.

في السبت التالي، كاد الحشد يفور من المجمع. البعض منهم لم يجد مكانًا فوقف في الخارج. لقد رأيت بأم عيني حجرًا جاثمًا على صدر الكهنة إذ كان عدد الوثنيين يتجاوز اليهود بكثير جدًا. لقد فسح لنا الحشد مكانًا لكي نصل إلى قلب المجمع حيث المنبر العالي.

تحدث برنابا قبلي. أراد أن يكون مسالمًا ومسايرًا، فأخذ يبني حديثه على المشترك، وليس على المتناقض والمختلف. كان وديًا في خطابه ومتماسكًا، ثم أتى دوري لأتكلم. وقفت أمام الجمع الكبير رافعًا يدي ومنطلقًا في كلامي. لقد تحدثت من دون موارية عن كل ما أريد قوله. إن تعاليم نبي دمشق لا تقول بشعب مختار. لقد أتت "كلمته" إلى الجميع. "لا يهودي ولا يوناني ولا عبد ولاحر لا ذكر ولا أنثى". لقد جعل خطابي آخر الجدران ينهار أمام أعين الكهنة الحانقين. وفجأة ندت عن أحدهم صرخة:

_ أيها المارق.. كيف تتجرأ!؟ ابتعدوا عنه! هذا الذي تتحدث عنه غير موجود إلا في عقلك. من سلطك علينا!!! ارحل.. ارموه في الخارج! ارموه في الخارج..هذا المارق الدجال!

وانشق المجمع في الحال إلى قسمين، كل منهما يشتم في الآخر. وقفت مثل صنم لا أنبس بكلمة. شعرت بخيبة عرفتها كثيرًا في السابق، لكن هذا الشغف داخلي كان دائمًا يعينني على النهوض والاستمرار. أخذت نفسًا عميقًا ثم ما لبثت أن تابعت كلامي بعد أن سكن الصخب قليلًا:

– يا أبناء إبراهيم، إنكم لا تقبلون ما أقول. إنكم تحكمون على أنفسكم بأنكم غير أهل للحياة... حسنًا! لا تنزعجوا إذًا من توجهي

لكل الأمم. لقد قبلوا الكلمة، وأنتم ترفضون حتى الإصغاء لكي تفهموا!!!

صعد برنابا إلى المنبر، ووقف إلى جانبي. إننا نعرف أكثر من أي وقت مضى، الآن، في هذه اللحظة وللتو أن كلمتنا هي لكل العالم. إن الأفكار العظيمة تأتي مثل الندى، وكذلك الثورات تحصل من شرارة صغيرة جدًا.

تركنا المجمع، وغادرنا وسط الصخب والهرج والمرج. لقد مُنعنا من الكلام فيه في أيام السبت اللاحقة، بينما بقينا نستقبل الكثيرين الذين كانوا يأتون إلينا في البيت الذي نقيم فيه من أجل المزيد من التعلم والتنوير. ضاعت في مهب الريح تعاليم جوبيتر مع كل مغامراته الغرامية مع الربات والآلهة، ضاعت غواني الأساطير التي حكمت البحار والعالم السفلي والرياح والحب والخصب ونواحها وغناؤها وتهديدها. ضاعت هيبة إله القمر الذي يتطلع بعين بلهاء مخبولة بالرائحين والغادين من فوق قاعدته عند مدخل المدينة. السحر واليقين على نفس السطح وفي نفس الوعاء في أنطاكية بسيدية وفي كل مكان في هذه الإمبراطورية التي لا يربط بين أجزائها إلا السيطرة العسكرية وكتائب الجنود الكثيرة التي تزرع الطرقات بين روما ومقاطعاتها البعيدة.

* * *

قامت قيامة اليهود علينا. الكثير من نسائهم متزوجات من موظفين رومانيين بارزين. لقد أظهرنا الكهنة أمام سلطات بسيدية بصورة من يريد أن ينشر ديانة مهددة للدولة. كانوا يصرخون:

– ألم يثر الناصري على الدولة الرومانية، وانتهى كل هذا بقتله ناجذًا على يد ملك روماني شجاع! إذًا، افعلوا نفس الشيء بأتباعه إذا كنتم تريدون أن تحافظوا على أمن المدينة بل الدولة كلها!

لقد أشعلت هذه الأوقاويل عني وعن برنابا ثورة في المدينة ضدنا. إننا بحكم المجمع محكوم علينا بالجلد في الأقبية، أما السلطات فلم تعرف كيف تدينني كمواطن روماني. لقد بدا وكأنها لم تقتنع بكل هذا التلفيق عني.

تركنا بسيدية على عجل أنا وبرنابا، بينما آثار السياط اليهودية ما زالت ندية على ظهرينا والأكتاف.

أيقونية[1]، خريف السنة السادسة والأربعين

إن تلال غلاطية الجميلة الخضراء مغرية للعمل. هذه الأرض الجبلية هي هدف خطانا الحثيثة المتعبة. على شمالنا تقع سلسلة جبال سلطان داغ، ومن الجنوب جبال طوروس، ومن الجنوب الشرقي كره داغ، ومن الشرق كراداغ. ها نحن نجتاز هذه القفار التي بدأ البرد يقرص فيها والثلج يتحضر للغزو.

أخذنا طريق "فياسباستا"[2] المؤدي إلى ليسترة[3]، لكنه عند بحيرة

---

(1) أيقونية: وهي مدينة في جنوبي الجزء الأوسط من آسيا الصغرى. وكانت أصلاً مدينة في فريجية، ولكن ضمها الرومان إلى ليكأونية، وكانت على الطريق التجاري بين أفسس وسورية.

(2) طريق فياسباستا: تم بناء طريق سيباستا، المعروف أيضًا باسم "الطريق الإمبراطوري"، بأمر من الإمبراطور الروماني أوغسطس ابتداءً من عام 6 ق.م. شكل الطريق قوسًا كبيرًا، بدءًا من البحر الأبيض المتوسط في بيرجة، أو ربما أنطاليا. يتجه الطريق باتجاه الشمال الغربي إلى كوماما، مرورًا ببحيرة بوردور إلى أنطاكية بيسيدية قبل أن يتجه إلى الغرب والجنوب الغربي عبر إيقونية وليسترا. تم بناء الطريق في البداية للسماح للوحدات العسكرية الرومانية بالتحرك بسرعة في جميع أنحاء المنطقة، مما يتيح استجابة سريعة لعمليات النهب المستمرة من قبل القبائل الجبلية. بالإضافة إلى ذلك، تم ربط الطريق بعد ذلك بالمستعمرات والمدن الرئيسية الأخرى في المنطقة بموانئ البحر الأبيض المتوسط. وهكذا فإن طريق فياسباستا وطرقه الفرعية كانت بمثابة شبكة نقل واتصالات مهمة بين الأقاليم ووصلة مهمة للعالم الروماني الأوسع.
D. French, “Roads in Pisidia,” in Forschungen in Pisidien, ed. E. Schwertheim (Bonn: R. Habelt 1992), 170.

(3) ليسترة: تقع لسترة على طريق قديم يمتد من أفسس إلى ساردس، إلى أنطاكية في بيسيدية، إلى إيقونية وليسترة، إلى دربة، عبر بوابات كيليكيا، إلى طرسوس، إلى أنطاكية في سورية، ثم إلى الشرق والجنوب. جعلت الإمبراطورية الرومانية من ليسترا مستعمرة

"كارالي" تشعب بنا إلى أيقونية التي قررنا أن نتجه إليها. عند ذاك المفترق، كان رجل اسمه أونيسيموس في انتظارنا. لقد عرف بقدومنا من حلم راوده. رأيناه يتفحص العابرين بانتباه وترقب إلى أن وقعت عيناه عليّ لأول مرة. لقد ميزني قلبه كما ذكر لي لاحقًا وليس قصر قامتي أو حاجبيّ الكثين ولا شعري الخفيف أو الانحناء في أنفي. ركض نحونا بابتهاج، وقادنا إلى أيقونية حيث أنزلنا في ضيافته.

بعد فترة قصيرة على وجودنا في المدينة، تحول منزل أونيسيموس إلى مجمع صغير. كنا نعلم، ونحاضر، ونعظ فيه. بالقرب منا، كان هناك بيت أشبه بقصر. كان بإمكان القاطنين فيه أن يسمعوا، ويروا كل ما يقال، ويُعمل في بيت أونيسيموس. في ذاك القصر، كانت هناك شابة تشبه الأميرات. لقد رأيتها عدة مرات تستمع من نافذة غرفتها إلى التعاليم والمحاضرات التي كنت أقدمها أمام الإخوة الذين يأتون إلي. كانت تقضي الوقت كله في الاستماع جالسة على حافة شرفتها. أصبحت أنتبه إلى وجودها يومًا بعد يوم من دون أن أعرف من هي. كانت تحدق بي في شغف الذي يريد أن يعرف أكثر؛ بينما أنا محاط بالمريدين والإخوة وشباب كثر. تحركت نسمة في قلبي في إحدى المرات عندما تلاقت نظراتنا لثوان. إن فضولي يكبر يومًا بعد يوم. أشعر بل أعرف أنها تحفظ كل ما أقول عن ظهر قلب. لقد كانت مخطوبة إلى رجل

في عام 6 ق.م، تحت اسم كولونيا يوليا فيليكس جيمينا، ربما للسيطرة بشكل أفضل على القبائل في الجبال إلى الغرب. في وقت لاحق، تم دمجها في مقاطعة غلاطية الرومانية، وبعد ذلك بفترة وجيزة قام الرومان ببناء طريق يربط ليسترا بإيقونية من الشمال.
Lund University. Digital Atlas of the Roman Empire.

وتتهيأ للزواج منه، لكن وعظتي عن العفة فعلت فيها ما فعلت فنذرت نفسها إلى نبي دمشق. لقد قاست كثيرًا من محاولات أهلها إقناعها العدول عن قرارها في عدم التخلي عن الزواج، فلم تفعل. شكوها إلى والي قونية الذي هددها بالحرق، فلم تفعل. اعتقدوا أنها مسحورة، وأن شيطانًا يقطن في روحها. لا بد أن حديثي عن العفة والنقاوة فعل فعله في الشباب الذين كانوا يأتون إلي، فاتهمت بأنني أمارس السحر على العقول، وكذلك فعل فعله في قلبها.

***

كنا قد طلبنا من أونيسيموس أن يأخذنا إلى المجمع يوم السبت كما هي عادتنا. لقد قدمنا أنفسنا كمعلمي ناموس مجتهدين. حين اعتليت المنبر رفعت يدي، وبدأت كلامي، ثم أخذت أتدرج في ذكر الحوادث التاريخية من الكتاب لأنتهي في علامات الوقت الحاضر بينما كان الجميع صامتين يستمعون، يريدون أن يفهموا ماذا أقول. وأخيرًا، ومن دون لف أو دوران، أذكر، كما هي عادتي، نبي دمشق بالفم الملآن. كان المجمع يضم المئات من اليهود والوثنيين اليونانيين. البعض حبّذ ما قلته بينما قامت الدنيا، ولم تقعد بعد أن اهتاج اليهود معترضين، وهكذا انشق الحاضرون وانشق معهم كل سكان أيقونية. لم يكتف اليهود بالاعتراض وإنما أخذوا يتآمرون علي وعلى برنابا لكي يتم رجمنا بقرار من المجمع.

انتهى كل هذا برميي في السجن بسبب من التهم المختلقة عني والتي انتشرت في أيقونية وضواحيها. أعرف يقينًا أن ثمن الشغف غال جدًا، فكيف إذا ما أتى في السلة المتينة للعقيدة!

أيام السجن في أيقونية كانت مظلمة، لكن ظهور "تقلا" أمامي

جعلني متأهبًا وفي استغراب! لقد رشت حارس قصر والديها بذهب أساورها كما رشت حارس السجن بمرآة من الفضة الخالصة فسمح لها بالدخول خلسة إلى زنزانتي. النسمة التي تحركت سابقًا في قلبي أصبحت عاصفة حالما رأيتها. من أنا حتى أستوعب هذا الشعور غير المفهوم مع أنه ليس بقدري! إني أعرف هذا في عمق قلبي. لكن ها هو الهوى يقذف بتقلا إلى أعلى نقطة يمكن الوصول إليها. هل هي فكرة العفة أم أنا من جعلها تتخلى عن خطيبها؟ الله وحده يعلم! لكني أشعر أنني في لب هذه الفكرة. ربما أنا هذا المرئيّ والمحسوس منها بل والمجسد لها. كل ما يحدث حولي يجعلني أعيش على حافة هاوية، ولكن من دون أن أسقط. حافة الهاوية أصبحت منزلي ومقامي، ودخولها علي هو دفعة صغيرة ولكن من دون سقوط. حالما رأتني جثت على ركبتيها وطلبت مني أن أعلمها أكثر. لم يكن هناك خيار أمام شجاعتها المفرطة إلا أن أمتثل من دون المزيد من الأسئلة. جلست على الأرض تحت قدمي، وأخذت تصغي، وأنا أتحدث بشغفي المعتاد. عند انبلاج الصباح، كانت تقلا ما زالت جالسة في مكانها عندما دخل علينا حارس السجن مع والدتها وخطيبها الملتاعين الخائفين اللذين كانا يبحثان عنها منذ هروبها. جروها من يدها بعد أن أخذت نصيبي من الشتائم والتأنيب والتهديد. اختفت تقلا بينما بقيت صورة وجهها في مكان ما من روحي.

بعد أيام، استطعنا الفرار أنا وبرنابا من المدينة مع آثار المزيد من السياط على ظهرينا، لكن ما عملناه في تلك البقاع وما بنيناه كان كبيرًا، وها نحن مرة ثانية نجد أنفسنا على الطريق نحث خطانا إلى حيث تقودنا.

السنة السادسة والأربعون، ليسترة!

قطعنا أربعين فرسخًا قبل أن نصل إلى ليسترة. إن هذه المدينة لا تقع على أي طريق تجاري رئيسي، وإنما هي منطقة مستنقعات فيها سهول كثيرة لرعاية المواشي التي صدفنا منها الكثير، ونحن نعبرها. إن سفوح جبل كاراداغ إنما هي أوكار للصوص وقطاع الطرق عجزت روما عن تطهيرها. أصبحت طبيعة هذه البطاح جزءاً من روحنا، متحدين بها لدرجة التماهي، وكذلك بوابات المدن التي نعبرها بتماثيل آلهتها، وطرقها المسقوفة والمكشوفة. ليسترة لا تشذ عن بقية مدن ليكاؤنية. إن النخبة الرومانية كانت للجنود المقيمين الذين يتحدثون اللاتينية بينما كان اليونانيون الأثرياء عددهم قليل، على حين ندر وجود اليهود فيها. لكن المدينة كلها وثنية من بابها لمحرابها. لقد كرس سكان ليسترة مدينتهم للإله زفس[1] فبنوا له هيكلاً أمام بابها يقوم على خدمته كهنة. كان زفس إلهًا يبدل ملابسه مثل البشر، ويعشق النساء الحسان، ويعيش بفسق. مرة ثانية، تتحول الأساطير إلى سحر يقوم على رعايته رجال كهنة. إنني أحارب طواحين الهواء بلحمي الحي أينما أذهب.

---

(1) زفس: (زيوس) في معتقدات الإغريق الدينية هو أب الآلهة والبشر. فهو الذي يحكُم آلهة جبل الأوليمب باعتباره الأب الوريث. زيوس هو إله السماء والصاعقة في الميثولوجيا الإغريقية. نظيره الروماني هو جوبتير، ونظيره في الميثولوجيا الهندوسية هو إندرا وفي الإيتروسكانية الإله تينيا. تكمن قوة زيوس في حكمه لقوى الطبيعة الرهيبة التي كان الإغريق يخشونها كالبرق والرعد والسماء الواسعة.
إلياس أنطون إلياس، إدوار إلياس إلياس (1979)، قاموس إلياس العصري، دار إلياس، ص. 276.

أحارب ما أعرف وما لا أعرف. إن خلافي ليس مع أنبياء العهد القديم، ولا مع النبوءات. إنهما طريقي لكي أدل، وأشير إلى تحققها اليوم، وإنما مع الناموس الذي لا ينثني، ولا يفهم.

لقد أوصى الإخوة بنا في أيقونية، فنزلنا في بيت عائلة يهودية مؤلفة من ثلاثة أشخاص؛ الجدة لاويس، وابنتها الأرملة أفنيكي، وابنها الشاب الرقيق ثيموثاوس. لقد استقبلتنا العائلة بكرم، وانفتحت علينا بسهولة إلى درجة أن الجدة همست لي أن ثيموثاوس ليس مختونًا. لقد تجاهلت ما قالته، إذ من يهمه الختان حين يكون قلبه ممتلئًا بالكلمة!! إن نبي دمشق هو الكلمة التي ألغت الختان، وألغت معه كل محرم ومحلل في ناموس فارغ مثل الطبل. لقد سعدت جدًا بصداقة ثيموثاوس، وأصبح مرشدنا في المدينة وفي كل مكان نذهب إليه، كما تحول منزل هذه العائلة إلى مكان للتحلقات مع الزائرين والمريدين.

وفي يوم، كانت المدينة تحتفل بعيد الإله زفس وكان سوقها مكتظًا بالفلاحين والبشر من القرى المجاورة وبالمتسولين الذين كانوا يطوفون بين الناس، ويجلسون على السلالم الحجرية للهياكل وأدرجة البيوت، احتلتني قوة جارفة؛ ترُى هل هذا هو الوقت المناسب لكي أقف متحدثًا أمام هذه الجموع! كان برنابا مثلي تتآكله الرغبة في الوعظ. إن نبي دمشق الذي أرشدني إلى الطريق، وجعلني أرى بعد عمىً طويل، هو الذي يحرك هذا الشغف المشتعل في داخلي. كم مرة عليّ أن أذكر هذا؟ كم مرة عليّ أن أعلنه في حديثي وتفكيري؟ كم مرة!! عشرات المرات! مئات المرات! لا! إنه مقيم

فيَّ، في نومي ويقظتي، في حلّي وترحالي، يقودني مثلما قادني جنودي المدججون إلى حنانيا الدمشقي، ففتحت عينيَّ، وما زلت.

إن يوم الحشر هذا هو اليوم الموعود. وفي الحال قفزت على حجر عال أمام الحشد، ثم رفعت يديَّ، وبدأت أتحدث بطريقتي المعتادة. كان برنابا يقف بالقرب مني. إننا معًا في سراء وضراء هذه المهمة التي نذرنا حياتينا من أجلها. وما هي إلا دقائق حتى التف حولنا حشد كبير، وأخذوا يصغون. خلال خطابي، شعرت بغتة بقوة عظيمة جعلتني ألتفت إلى جانبي. كان هناك مُقعد يحدق بي من دون رفة جفن. نظرته الحزينة القلقة والثابتة هزت عالمي كله، وثقبت الغلالة التي تحيط بي. كلما أكملت في كلامي كانت هذه القوة العظيمة تجبرني على التلفت باتجاهها. نظراته احتلت الفضاء حولي. أصبحت مشدودًا إليه بكليتي ومجذوبًا بسلاسل انتباهه. وفجأة تطلعت إليه، وصرخت بكامل قوتي:

– قم على قدميك الآن!

وكأن هناك قدرة هزت الحجر الذي يجلس عليه، فوثب واقفًا، وتحرك قليلًا باتجاهي. لقد أجفلت أنا نفسي حينما رأيته ينهض، وأصابتني رعشة سرت في كامل جسدي. أما برنابا وبقية الحضور فقد هبوا واقفين مرعوبين. لقد رفع المُقعد عكازيه في الهواء في غبطة مجنونة مسحت كل بقع الحزن والقلق عن وجهه كمن يقشر ثمرة بضربة سكين.

أخذ البعض من بين الحشد يصرخ مشيرًا إلي:

– إن الآلهة قد تشبهت بالبشر، ونزلت بيننا!

يا الله! لقد لمست بيدي الآن وللتو هذا الحد اللامتناهي في

الصغر بين الطبيعي والفائق للطبيعي. بين الممكن والمستحيل. ذوبته! حاشى أن أكون أنا! إن النار المشتعلة في داخلي فعلت! اللحظة المضيئة الممتلئة بالنية القوية هي التي فعلت! كن فيكون، وينطق الحجر! كن فيكون، ويمشي المقعد! كن فيكون، وتتحرك الشمس بعكس اتجاهها! السلطان يبدأ من هنا، من هذا الشغف القتال والحب الملوع. الروح في مقام أعلى من المادة، هي التي تأمرها، وتحركها، وتقيمها، وتقعدها، وهذا ما حدث معي للتو. من الآن، من هذه اللحظة سوف أطلق على نفسي تلميذك بقدرة الحب وقوته، أنت يا نبي دمشق، يا سيدي وحبيبي!

تحول إعجاب الجمهور إلى صخب كبير. لقد ألبسونا حكاية زفس وهرمس. فصلوها على مقاسنا بسبب ما حدث. ومن لديهم لكي يجروا المقارنة معه؟ أصبحت أنا هرمس بقامتي القصيرة وبرنابا زفس بقامته الطويلة وشعره الطويل الأجعد. الصرخة القوية التي أطلقتها باتجاه المُقعد، أرجفت الجميع، وحركتهم. السلطان الذي خرج مني كان جليًا مثل عين الشمس، وقويًا مثل سطوة كونية، هكذا رأوا ما حدث وفسروه. إن أميتهم والشعوذة التي تآلفوا معها عبر السنين، ونصبوا من أجلها التماثيل أصابتهم في مقتل، وأغرقتهم في سوء الفهم، وكادت تودي بي وببرنابا في لمح البصر.

إن الجميع يصرخ، ويتحدث بلغة ليكاؤنية محلية لا نفهمها. يبدو أن ما حصل قد تم إعلام كاهن معبد زفس به وفي الحال سار موكب طويل جارًا ثيرانًا كثيرة وأكاليل من أزهار برية من باب المدينة باتجاه المعبد لتقديم الذبيحة إليه. إذًا هذا ما ظنوه! إذا

هذا ما اعتقدوه! أننا آلهة نزلنا بين الناس!!! إنني غير قادر على السكوت أبدًا. لقد وصل كرهي للوثنية إلى حده الأقصى. اندفعت أنا وبرنابا باتجاه الجموع وشققنا ثيابنا عن صدرينا صارخين:

– ماذا أنتم فاعلون!! ما نحن سوى بشر مثلكم! عودوا عن تلك الأباطيل إلى الله الحي!!!!

لقد توقف الجمع بصعوبة عن ذبح الأضاحي لزفس بعد أن رأونا نصرخ، ونشق ثيابنا اعتراضًا على هذا الكفر. أين أخطأنا! كيف غفل عنا أن الوثنية تخلق عبيدًا بنفس خطر الذين للناموس! إن التماثيل الفارغة من أرواحها فرغت المؤمنين منها أيضًا ولقد كان علي أنا وبرنابا أن نفهم كل ذلك لكن ما حدث كان مباغتًا وسريعًا. حاشى أن أقبل أن أُعبد كإله! حاشى! إن هذه المنطقة بأسرها تركع للأباطرة، وتقدسهم، وتبتهل أمام تماثيلهم وتماثيل آلهتهم. حاشى أن أقبل أن تقدم أي فروض طاعة لي. حاشى! إن الحب جعلني مساويًا للتراب الذي أمشي عليه. إن تقوّس ظهري لم يأت من عبث وإنما هو أنا في حالة خشوع دائم بسبب الحب.

لم ينته كل شيء عند هذا الحد، فلقد حضر بعد أيام قليلة يهود أيقونية وأنطاكية بعد أن وصلتهم الأخبار، وأشعلوا النار من جديد. أصبحوا ينشرون بين الناس أننا مخادعان كاذبان بل ومجرمان خطيران محكومان بالرجم أينما حللنا. لقد كانت لليسترة أذن كبيرة فسمعت، وأصغت، ونفذت، وهكذا امتلأ المناخ حولنا بالبغض والعداء.

وفي يوم، بينما كنت أمشي في سوق المدينة، لمحني البعض وأخذوا يصفرون ويشيرون إلي. إنني الآن عدوٌّ لزفس نفسه ولست

تجسيدًا له. وفي الحال انهالت الحجارة عليّ مثل زخ المطر موجهين أكبرها إلى رأسي فيكون موتي محتمًا. فقدت وعي من قوة الضربات، ووقعت من دون حراك. لقد ظنوا أني مت فحملوني ورموني خارج أسوار المدينة.

حين سكنت ليسترة، وخلدت للنوم، خرج الإخوة يبحثون عني في هدأة الظلام. لقد كبر قلقهم، وهم يجوبون الأسواق والطرقات يحدقون بالرائحين والغادين من دون أن يجرؤوا على سؤال أي من المارة. لربما تطوع أحد ما وهمس لبرنابا بما حدث، الله أعلم! وهكذا حثوا خطاهم متخفين إلى خارج أسوار المدينة، وعثروا علي منقوعًا في دمي في العراء. جروني إلى منزل ثيموثاس من دون ضجيج، وهناك أخذوا في تنظيف جروحي ومداواتي وإعادة الحياة إلى صدري.

إذًا، لم تنته مهمتي. ها هو نبي دمشق يقول لي ذلك بالفم الملآن، "لا سلطان لهذا العالم عليك، تشبث بي ولا تخف". قالها مرة ثانية، وأنا في عمق غشيتي وسيل الحجارة يسقط فوقي تمامًا مثلما كانت تسقط شمس دمشق الحارقة على رأسي وأنا في الطريق إليها منذ سنوات. ها أنا ذا يا استفانوس! ها أنا ذا! أصبحنا اليوم متعادلين. الحجارة التي سقطت عليك، سقطت علي حجرًا حجرًا. لا دين لك في رقبتي بعد الآن سوى أن أكمل نفس الطريق الذي بدأته. كل رجم، كل سجن، كل سوط كان تكفيرًا عن هذه الدقائق التي حرست فيها أسمال قتلتك الهائجين.

لم يعد ممكنًا أن نبقى يومًا آخر في ليستره، وهكذا شددنا رحالنا أنا وبرنابا وتيموثاوس، وغادرناها، وآثار الرجم تئن في جسدي، وفي كل منها أشعر أن نبي دمشق يولد، ويكتمل.

على حدود غلاطية

عبرنا صحراء مالحة في عربة تتحرك صعودًا وهبوطًا فوق صوانها القاسي، بينما كانت جروحي الطرية تشتعل، وتنطفئ مع اهتزازها. كنا متجهين إلى مدينة دربة[1] الجبلية على حدود غلاطية. تضاعف تعبي خلال الرحلة، فالتزمت الفراش حالما وصلنا بطلب من برنابا الذي حثني على الراحة:

– إذا أردت المثابرة والاستمرار عليك بتجميع قواك أولًا!

– لكن لساني وفصاحتي بخير!

– ماذا تقترح!

– سأبقى في السرير لكن دع من يريد أن يأتي ويستمع إلى الكلمة أن يحضر إليّ هنا.

–... حسنًا! إذا كان هذا ما تريده!

أصبح سريري مكانًا للقاء والتجمع. كنت أعطي الدروس وأخطب، وأنا ممدد على فراشي أتعافى. لقد سمح لي هذا بالشعور ببعض الأمان إذ اعتقد اليهود أنني متّ، الخبر الذي انتشر في

---

(1) دربة: مدينة في أقصى الركن الجنوبي الشرقي من سهل ليكاؤنية. ذكرت دربة لأول مرة في الوثائق التاريخية، كمقر لحكم أنتيباتر الذي استضاف شيشرون الخطيب الروماني الشهير والذي كان حاكمًا لكيليكية. اكتسبت مدينة دربة أهميتها – وبالتالي استحقت زيارة الرسول بولس لها في رحلته الأولى – بسبب موقعها على الطريق الرومانية العظيمة التي تمتد من أنطاكية بيسيدية، عاصمة "جنوبي غلاطية" إلى "أيقونية"، و"لاراندا، وهيراقليا سيبسترا إلى بوابات كيليكية. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

كل مكان، وهكذا حظيت بشيء من الفضاء لكي أكمل عملي. إن الوقت الذي قضيته في دربه جعلني أبني مجمعًا روحيًا آخر فيها. ثيموثاوس الطيب كان خير مساعد لي حيث كان يتنقل بين مجامع غلاطية يحمل رسائلي وتوصياتي التي أردت من خلالها المزيد من التنظيم، وتفسير بعض القضايا الروحية والبت فيها وما يجب وما لا يجب عمله. إن رسائلي لم تتوقف إلى الكنائس التي أطلقها في المدن التي أمر، وأقيم بها، مرة كنت أكتبها بيدي ومرة أخرى كنت أمليها لأحد الإخوة من رفاق السفر..

استطعت مع الوقت أن أستعيد قوتي الجسدية بعض الشيء، وهكذا أخذت أتجول في المنطقة بين لسترة وأيقونية وبسيديا وبرجة وأتاليا مطمئنًا على المجامع فيها ومكرسًا أنا وبرنابا قساوسة لخدمتها. إن الكلمة تتحول إلى كيان مادي حيوي له حقوقه وعليه واجبات؛ لقد عمدت إلى شرحها وتفسيرها في أغلب رسائلي موضحًا تراتبية السلطة فيها وكذلك العديد من الشؤون الروحية. لكني كلما كنت أفعل هذا، كنت أسال نفسي: هل هذا ما أراده نبيّ دمشق؟ لمَ لم ينقذ نفسه؟ لمَ لم يترك أفكاره مكتوبة بخط يده لمن بعده فلا نتعب في التفسير والشرح؟ هل عظة الجبل تكفي لتغطي كل شيء؟ هل كان يعرف أن كل هذا سوف يحدث من بعده؟ إن التأليه عادة عشت معها، وأعرفها. كل هذا الشرق يعرفها، ويمارسها! هل مارستها أنا أيضًا من دون أن أنتبه؟! وإذا كنت أبشر بالكلمة التي هي فحوى الحب بذاته، أليست هي جوهر الله نفسه! أسئلة كثيرة كانت تفجر قلقًا لمحويًا قويًا في داخلي لا يلبث أن يختفي!

إلى أنطاكية من جديد،

بعد غياب، ها نحن نعود لكي نبحر باتجاه أنطاكية. إن قلبي لا يحتمل الانتظار لملاقاة الإخوة هناك؛ أريد أن أطمئن على النبتة الصغيرة التي زرعتها بيدي في تلك المدينة الحبيبة. أينما سافرت، وارتحلت يرجعني قلبي إلى سورية. إن نسائم البحر، وأنا على سطح السفينة المبحرة تعيد إليّ ذكريات كثيرة في تلك المدينة، أما عقلي الذي لا يهدأ فقد أخذ يتوقع، ويحذر، ويستفسر عن أحوال من تركتهم فيها، وأودعتهم مسؤوليات كبرى. إن توقي لمعرفة أحوال المجامع فيها عظيم جدًا.

ولاحت أنطاكية في الأفق. لاحت أبنيتها وحدائقها بل حتى تناهى ضجيجها إلى مسامعنا، ونحن نترنح على سطح سفينتنا التي كانت تدخل الهوينى إلى مرفئها الكبير. كأننا قضينا كل تلك السنوات المنصرمة في صحراء قاحلة مقارنة ببهاء هذه المدينة التي تنام على كتف العاصي الهادئ.

استقبلنا شيوخ أنطاكية بالترحاب. لقد هالهم الكبر على وجهي والتعب والجروح الكثيرة البادية على جسمي. كأنهم عرفوا من دون سؤال كلفة الشغف، ولم ينتظروا حتى نصل إلى مكان إقامتي، فأخذوا يمطرونني بالأسئلة الكثيرة عن رحلتي الطويلة التي كنت أجيب عليها بسرعة وفرح. حين جلسنا متحلقين حول مائدة اللقمة الأولى صاح أحد الإخوة:

– إن سورية، يا بولس، من أعالي الأمانوس وحتى قلب كيليكا أصبحت مزروعة بالمجامع الجديدة. إن عمل الكلمة لا يتوقف.

– كم عظيم ما أسمعه منك! وما هي أخبار المنقلبين من غير اليهود!!

حلق صمت على الجميع في الحال. رأيت ترددًا على الوجوه أن هل نقول له أم لا! وفي الحال انبرى صوت مرتفع من بينهم:

– يا بولس إن الإخوة في أورشليم لا يعرفون ظروفنا، ولا يفهمون أوضاعنا.

صوت آخر:

– إذا استمر الحال على هذا المنوال فسوف نقع في إحراج وفوضى كبيرة قد تطيح بكل شيء!

– ما القصة!!

– الإخوة في أورشليم لا يعترفون بشبابنا الوثنيين الذين انقلبوا، وقبلوا الكلمة. يقولون إن عليهم أن يعرفوا الناموس الموسوي أولًا قبل أن يعتمدوا! إنهم يميزون بينهم وبين اليهود المنقلبين!!!

– .....!

– هل نحن قادرون عل هذا الأمر!! إننا ما زلنا في بداياتنا وليس لنا القدرة على هذا الشرخ الكبير الذي أصبح يقترب منا!

– كنت أشعر بكل هذا في عمق قلبي، لكني كنت أراهن على أن يضمحل ويندثر مع الوقت. الحق، لم يعد هناك مجال للالتفاف على هذا الأمر أو تجاهله، لقد استفحل، وكبر، وأصبح ملء العين. إن الوثني المنقلب لهو بالنسبة لهم أصعب من اليهودي المرتد ارتدادًا كاملًا. إنهم يطلبون ختان الوثني وحفظه للناموس قبل الانقلاب. أي جنون هذا! إن كنيسة نبي دمشق لا يمكن لها

أن تكون بهذا الضيق. إن الخلاص لم يأت لشعب مختار، بل من المستحيل أن يأتي لشعب مختار! إذا غدت الكنيسة طبقاتٍ وفروعًا فإنها ستنتهي عاجلًا أم آجلًا!! لا يوجد طبقات بين المرتدين مهما كانوا. طالما انقلبوا، إذًا، هم في نفس القارب. إن نبي دمشق ليس عنصريًا حتى ولو كانت أمه وأبوه يهوديين. الدم ليس له علاقة بالكلمة ولا يعطيها قيمتها. الكلمة حين تأتي؛ فهي تفعل بذاتها وبقوتها تحدث التغيير!

وتطلعت بنظرة واحدة في الشيوخ المتحلقين حولي ثم أكملت:

– أنا لست داعية للعنصر اليهودي، ولن أكون. إنني أفهم تمامًا ما تقولون. إذا كان الإخوة في أورشليم يعتقدون أن نبي دمشق هو المحافظ على الناموس فقط لأنه ولد يهوديًا، فهم مخطئون!

وانبرى أحد الإخوة شارحًا:

– إنهم يتمسكون بعبارته التي يقول فيها إنه لم يأت لكي ينقض الناموس!!

– لا يوجد نقض. هذا صحيح، لكن حتى لو كانت اليهودية هي الفرع، فإن الثمرة التي نمت عليها هي ثمرة مختلفة. إنها ثمرة متمردة أعطت نفسها لكل يد قاطفة. هذه الثمرة هي الكلمة وهي معطاة للجميع، لكل عابر سبيل، فإذا بقيت على فرعها من دون قطاف، فسوف تموت في مكانها. إن على كنيسة أورشليم أن تفهم وتعي ذلك، وإلا فإنها تحفر قبرها بيديها. وها أنا أقولها الآن أمامكم من قلب هذه المدينة الحبيبة، إن نبي دمشق لم يترك توصيات تقول لمن يجب أن تصل كلمته، ولا أنا بالمثل سوف أقدم مثل هذه

التوصيات. إن الحبوب المنثورة في الحقل يلتقطها كل طير محلق في السماء. عليهم أن يفهموا هذا!

– وكيف سيفهمون، يا بولس!

– كل واحد منهم تعمد، وما زال يحتفظ بالناموس في داخله إنما هو يشذ عن تعاليم نبي دمشق من دون داع! إن هذا تشويه كامل للكلمة! بل إنه الهرطقة بذاتها. لقد آن الأوان لكي نعلن هذا الانفصال الروحي بين الاثنين!

–.. إن ما تقوله شبه مستحيل! مجرد ذكره يشعل الخوف في القلوب!!

وعلا صوتي:

– الخوف ممن؟ من المحرمات والمحللات؟ من النواهي والأوامر؟ من الختان؟ من التطهر؟ من ذبح الحمام والطيور من أجل النذور؟ ممّ هو الخوف إذا كانت الكلمة كلها معنا! إذا شبهنا الكتب القديمة بالنبوءة، فإن نبي دمشق هو التحقق. لن أذهب أبعد من ذلك! إذا كان هذا التفسير يرضي، نمشي به، لكن لن أذهب أبعد من ذلك لأن الطريق مسدود.

وانبرى أحد الإخوة محتجًا:

– هل تساوي بين الناموس والوثن، يا بولس!!

– حين يتحول الناموس إلى وثن فإنه يتساوى معه في اللحظة! الناموس لا يصنع عجائب في الناس، لا يغيرهم، ولا يبدل أفكارهم وأحوالهم. الكلمة الحية تفعل. الكلمة المُحررة تفعل. انتبهوا أيها الإخوة، إن نبي دمشق ليس مهرطقًا يهوديًا. إنه كل القصة هنا،

كلها من بابها لمحرابها! فاعلموا أنتم أيضًا ذلك. لا تتطلعوا إلي هكذا! لقد رجموا استفانوس حتى الموت؛ لأنه تجرأ، وأعلن ذلك، وأنا لن أشذ عنه في ذلك، وأتمنى ألا تفعلوا أنتم أيضًا. إن الانشقاق يعني أن نموت قبل أن نولد.

سكن الجميع في الحال، وأخذوا يهزون رؤوسهم متفكرين. وفجأة سألت:

– من يقوم على الإخوة في كنيسة أورشليم؟

– بطرس ويوحنا ويعقوب... ويعقوب أكثرهم تأثيرًا!

– ... حدثوني عنه!

وأخذ أحد الإخوة ممن عرف يعقوب شخصيًا يتحدث:

– إنه الرئيس الشرفي لكنيسة أورشليم. شخصيته محترمة ومهابة من الجميع. الكل يلتف حوله، ويصغي لما يقول. لم تُفتح عينه على الكلمة إلا بعد مقاومة ونكران طويلين. يعقوب عمل ويعمل جاهدًا لكي يمسك عصا التوازن من منتصفها؛ الكلمة من جهة وناموس موسى من جهة أخرى. إنه يعيش حياة أقرب للناسك. لم يمس جدائلَه الطويلة موسى ولا اقترب عطرٌ من جسده يومًا، ولم تلبس قدماه نعلًا! صائم، لم تعرف معدته لحمًا أو خمرًا. متى أضاعوه، يعثرون عليه راكعًا مصليًا في الهيكل. يقولون إن ركبتيه قد أضحتا مثل الحجر من كثرة السجود! يطلقون عليه حامي الشعب، إذ يكفي أن يرفع يديه إلى السماء حتى تحدث معجزة.

كنت أصغي بكل انتباه، وأعمل عقلي بسرعته القصوى بينما كان يُكمل كلامه:

– يعقوب هو ذو مهابة كبيرة إذ لا الصديقيون[1] ولا الفريسيون يجرؤون على الاقتراب منه، ولا حتى هيردوس أغريباس[2] نفسه تجرأ على ذلك. حين ترك كل الإخوة المدينة بقي هو وحده فيها. كثيرون اعتنقوا الكلمة، وآمنو بنبي دمشق على يده، لكن بسبب توجهه تحلقت حوله فئة متعصبة جدًا حد التزمت، وهي اليوم تسود كنيسة أورشليم.

– فهمت!

* * *

---

(1) صدوقيون: يظهرهم العهد الجديد ويوسفيوس أنهم والفريسيين طائفتان متخاصمتان في اليهودية. والصدوقيون فرقة صغيرة نسبيًا، ولكنها مؤلفة من مثقفين جلهم أغنياء وذوو مكانة مرموقة. وقد عم الرأي أن اسمها مشتق من صادوق. وذلك لأن هذه الطائفة مؤلفة من رؤساء الكهنة والأرستقراطية الكهنوتية. وقد كان صادوق رئيس كهنة في أيام داود وسليمان وفي عائلته حفظت رئاسة الكهنوت حتى عصر المكابيين فسمي خلفاؤه وأنصاره صدوقيين. وبخلاف الفريسيين الذين كانوا يؤكدون تقليد الشيوخ، حصر الصدوقيون تعاليمهم في نص الكتاب قائلين إن حرف الناموس المكتوب وحده ملزم حتى إن قاد الناموس إلى شدة في المقاضاة. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

(2) هيرودوس أغريبا: وهو ابن ارسطوبولوس، وحفيد هيرودس الكبير وامرأته مريمنة. وقد عاش طويلًا في روما. ثم رجع وعين حاكمًا على بعض فلسطين سنة 39 م.، وأضيفت إلى منطقة نفوذه أراضي واسعة لرضى الإمبراطور كاليغولا. من أخباره أنه ذبح يعقوب أخا يوحنا بالسيف (ع 2،1:12) وسجن بطرس (أع 12: 3–19). يروي الكتاب نهايته إذ أكله الدود بعد أن أدعى الألوهية. مات في سنة 44 م وكان عمره عندذاك 54 سنة. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

مرت أيام عمل ولقاءات كثيرة مع الإخوة. الكنيسة التي عملنا لكي تخرج إلى النور في أنطاكية كانت أممية تستقبل كل من وجد خلاصه في الكلمة. أبوابها كانت مفتوحة للجميع، يهود ووثنيين ويونان. لكن، مع ذلك، قلقي على الكنيسة الأم يكبر، ويتعاظم. كيف الوصول إلى هؤلاء وإقناعهم أن الناموس ليس جزءًا من تعاليم نبي دمشق! كيف يمكن خلق هذه الوحدة بين الأفكار والميول! اليهودية بذاتها قالت بقدوم التغيير. أنبياؤها قالوا بذلك لكن متى حصل ذلك كذبوا أعينهم. حتى التغيير يريدونه من ملة بعينها، فإذا لم يكن على يد قائد أو ملك مهاب مرصع بجواهره وأمام وجهه – الشمس تركع المسكونة إذًا هم لا يريدونه! ما هذا الهراء الكبير! إن الكلمة هي القائدة وليس التاج المرصع. نبي دمشق حوّل الحرف إلى معنى، وحوّل الكلمة المنطوقة إلى جوهرها وهذا ما لا يروه إلى هذه اللحظة! هل هو الناموس؟ يا لهذا الناموس الذي لا ينكسر، أو ينثني، أو يذوب، أو يفهم! لقد استوت أوامره ونواهيه، وأصبح إنعاشها وحتى قلبها كلها رأسًا على عقب أمرًا لازمًا لا مفر منه.

يا أيها العقل الذي لا يهدأ، امنحني دقائق من الراحة! قدم لي فسحة أتنفس فيها، فأرى الحل، ولا ننشق قبل أن نولد. إن قلقي فاق كل شيء وكذلك فرحي بعمل الإخوة في كل أرجاء سورية.

* * *

بعد وقت قصير على وصلونا إلى أنطاكية وانطلاقنا في العمل، وصل إليها وفد ممثل ليعقوب من كنيسة أورشليم. لقد تناهى إلى الإخوة هناك ما نقوم به أنا وبرنابا في أنطاكية وقبول الجميع لتوجهنا الأممي، فأرسلوا على عجل من يمثلهم لكي يعاينوا

ويستفسروا. خرجت مع برنابا وبعض الإخوة حتى أبواب المدينة لملاقاتهم. وكيف لا نفعل، ويقف وراءهم ظل رجل عظيم مثل يعقوب! حين أصبحوا على مرمى نظرنا القريب، فتحنا أيادينا على مصراعيها استقبالًا لهم.

اجتمع حشد كبير في اليوم التالي في كنيسة أنطاكية على شرف الإخوة القادمين. كنت أقف بين الحشد وبينهم معرفًا ومرحبًا، لكن الإخوة كانوا يتجنبون الأيدي الممدودة بالسلام، بل يبتعدون متنحين بأنفسهم على مسافة من الناس حتى إن البعض منهم ممن أُجبر على التسليم بيده أسرع فغسلها. لقد رفضوا أيضًا دعوات من بعض الحاضرين من المنقلبين الوثنيين إلى بيوتهم. لقد راقبت كل هذا وكبتّه في قلبي إلى أن كان علينا أن نجتمع معًا على طاولة الطعام في نفس الليلة حيث قام أحد الإخوة من بينهم، وهمس في أذني:

– يا بولس، إننا في موقف محرج جدًا. إننا نقدر ما تفعله في كنيستك، ولكننا لا يمكن أن نجلس مع مسيحي لم يختن بحسب ناموس موسى على طاولة واحدة، ولا حتى يمكن أن نمد يدنا إلى ذات القصعة التي يأكل منها. نريد طاولة منفردة خاصة بنا.

وفي الحال أُسقط من يدي. شعرت أنني في نقطة الصفر أقف. رأيت كل تعب السنوات السابقة، وكأنه تلاشى في الهواء بلمح البصر. حاولت أن أشرح للإخوة موقفنا مفندًا كل النقاط ومدعمًا إياها بالبراهين والتفسير إلى أن وصلت إلى نقطة عقيمة ارتفعت فيها أصواتنا عاليًا، وبدأ شيء من التوتر يسود في المكان. وفجأة، اقترح أحد من بينهم أن نذهب إلى أورشليم لكي نشرح هذه المسألة للمشايخ هناك، فوافقت في الحال فسكن الصخب.

الزوبعة الكبرى

إن التربية اليهودية محفورة حفرًا في نفوس معتنقيها. الختان، التزاوج من نفس الدين، شراء اللحم من قصابين خاصين وعشرات العادات الصغيرة أخذت تلف، وتدور حول رأسي مثل شهب سريعة خاطفة. من يعرفها أكثر مني! من مارسها أكثر مني! أنا نفسي دافعت عنها حتى العنف، حتى الموت! لكن الكلمة فعلت فعلتها بي، غيرتني، وعجنتني، وخبزتني بعد أن وضعت خميرتها في عمق قلبي وعقلي. كيف يمكن أن نُلبس الواحد منا ثوبين، الواحد فوق الآخر، ونطلب منه أن يعيش فيهما مدى الحياة، ويرى ضالته في الراحة التي يقدمانها له؟ وهل يقدمان راحة أصلًا! ثوبان مختلفان، كل قطبة في واحد منهما تقف في طريق قطبة في الثوب الآخر، وتتقاطع معها بحيث تعيق حركة المرتدي. أنا لا أريد أن أفكك قطب الثوب الأول، وأعيد تعديل قصته. كل هذا لا يعنيني، وإنما أريد أن أُري الجميع المغزى في تفصيل الثوب الجديد، والغرض من كل غرزة فيه وكل تفصيلة، ولمَ هي موجودة أصلًا. لم يعد جمال الثوب مهمًا بقدر قدرته على جعل المرتدي مرتاحًا وطليق الحركة. القصات الكثيرة التي من دون داع لا نريدها، الجيب الكثيرة، القماش المتحلق المتدلي الأطراف لا نريده، الزخرفة المفرطة لا نريدها. إن الخيم التي كنت أحيكها من وبر الماعز كانت تعيش طويلًا وتستمر وتقاوم عوامل الطبيعة. ربما لم تكن بهذا الجمال ولكنها كانت

مفيدة ومريحة لمشتريها. لقد حملنا هذا الثوب على أكتافنا لقرون طويلة. أصبح عتيقًا وقديمًا وأكثر ثقلًا من كثرة ما راكم فوقه من تفاصيل صغيرة لسنا بحاجة إليها. التغيير يعني أن نتخلص من بعض القديم، وإذا كان ضروريا أن نتخلص منه كله، وهذا لم يحصل أبدًا مع هذا الثوب الذي نخاف اليوم من التخلي عما بقي منه. كيف لم يرَ يعقوب هذا! كيف لم ينتبه إليه؟ كل هذا الورع والإيمان العميق لم يحركا ذكاءه فيرى هذا الجدار السميك الذي يبنيه حول شعبه! الناموس، أي ناموس كان هو طاغية يضيع بوصلة الحق أحيانًا، يحبسك في مبدئه الأول إلى الأبد، ويطلب منك الثبات وعدم التغيير مخالفًا بذلك شريعة الطبيعة. أما التربية، كيفما كانت عقيدتها، فهي التي تبقى في وجدان حتى أكثر البشر فهمًا وذكاءً. عاداتنا التي نشأنا عليها، تقاليدنا التي نمارسها من دون تفكير حتى لو سببت في موتنا، كلّها أمور لا نناقشها وذلك لأن مصدرها إما مجهول أو مقدس، وفي الحالتين هي أمور قمعية، وعنفها يكمن في هذا القسر المؤلم الذي تفرضه على العقول. أشعر أني أقف في عين الزوبعة. لقد حان وقت النزال الحقيقي.

المجمع الرسولي، السنة التاسعة والأربعون

أخذنا طريقنا في بدايات الخريف أنا وبرنابا وتيطوس الأنطاكي إلى أورشليم. تيطوس وثني قَبِلَ الكلمة، وآمن بها حية في قلبه. إنني أعقد آمالًا كبيرة على هذا المرتد الصديق. إنه ثمرة نضجت على شجرة الأممية العظيمة، وهو البرهان القاطع على أن نبي دمشق هو نبي أممي لا تقف في وجه كلمته قيودٌ ولا حدودٌ. هذا المرتد من الأمم هو راية انتصار لي أمام الإخوة في أورشليم. ترى هل يعقلون، ويقبلون، ويرضون في قلوبهم بهذا!! كانت شخصية تيطوس الجذابة هي خير رفيق في سفرنا. لقد زرنا في طريقنا المجامع الكنسية لكل من فينيقيا وصور وصيدا وقيصرية، ثم توجهنا إلى الداخل قليلًا نحو السامرة، وفي كل مكان، كانت الأيادي تفتح على مصراعيها أمامنا. أخيرًا، يبدو أن الوثنية تعثر على تقواها وخلاصها لا في تماثيلها التي ألبسوها قصصًا من خيالهم الخصب وإنما في أمور لم تكن تخطر على بالهم. إنني مفتون بلفظة "الكلمة" التي أستعملها كثيرًا حين أكرز لأن قوة التغيير تكمن فيها لا كما في كلمات السحر والشعوذة؛ وإنما في الفحوى بذاته وفي الجوهر وفي المعنى حيث الزوبعة الطاغية والفاعلة للتبدل والتحول. إنني أكمن، وأركن، وأرقد تمامًا هنا، في هذا الداخل الكثيف للمعنى، وأتحد به. الكون كله أصبح في داخل هذا المعنى بالنسبة لي. فيه تكمن المحبة النقية الخالصة التي لا يرف لها جفن أمام شكليات الحياة. حتى نبي دمشق عثرت عليه هناك وليس في أي مكان آخر، وهذا ما أريد من كل الإخوة أن

يروه، ويختبروه. إنني لا أعبث بتعاليمه ولا بكلمته. أنا فقط عمدت إلى تفتيح هذا البرعم الثمين، وإلى سقيه والعناية به وإيصال معناه للآخرين. أنا الكشاف المحب والمريد الشغوف أومن بتغيير المعنى مع مرور الزمن، تغييرًا طبيعيًا لازمًا. أنا لا أعبث هنا بما كان، وإنما أنا الزمن الطبيعي لتطوره. إنني أشعر بكل هذا، ولا أستطيع أن أقاوم حركة يدي وروحي فيه. ألم توجد الكلمة لكي نتفاعل معها، ونحيا من خلالها، ونخلص! إن هذا تمامًا ما أنا فاعله. حتى ما أقوله الآن وأختبره للتو لن يبقى على حاله مع مرور الزمن وسوف يأتي آخرون لكي يضيفوا عليه، ويحللوه، ويخبزوه ويعجنوه، ويفسروه. إنني لا أعترض على حركة الزمن الطبيعية وتبدل الأفكار معها، فعقلي اليوناني يقبل بكل هذا، ويؤمن به، غير أنني لا أقبل أن نشذّ عن الجوهر بذاته والذي هو المحبة اللامشروطة التي لا تعترف بقيد التقليد ولا الموروث إلا بقدر سعيهما إلى زيادة بريق هذا الجوهر. كل هذه الأفكار تروح، وتجيء في عقلي مثل بندول رقاص، أحاول أن أشرحها لمن ألتقيهم في الكنائس التي كنا ندخلها، ونحن في طريقنا إلى أورشليم، وكأني أهيّئ نفسي إلى لحظة المواجهة، كأني أدربها المرة تلو الأخرى. كل هذه الهواجس أعمل على جعلها عملية ومطبقة أمام الأعين المتسائلة حولي، وكم كانت مفاجأتي كبيرة حين كنت أرى فهمًا عظيمًا لها من قبل الوثني المرتد الذي عاش عمره وعيونه معلقة على تماثيل الأضاحي والبطولات الخارقة وقصص الحب والمطاردات.

***

وأخيرًا، وصلنا إلى أعتاب أورشليم بعد أسابيع من السفر الطويل. إلى هنا، أعود المرة تلو الأخرى، في كل منها أعتل حمولة مختلفة على كتفي؛ مرة كقاتل، ومرة كمنقذ، وأخرى كمفاوض. حالما التقيت مع الإخوة شعرت بتوتر كبير في المناخ حولنا. لقد أرادوا أن يسبق المجمع المقرر احتفالٌ دينيٌّ تقليديٌّ، وكذلك مائدة المحبة والشكر، وهذا ما حصل. كنت حريصًا كل الحرص على الإصغاء وإشعار من حولي بالتفهم حتى لو كان حديثًا عابرًا عن الطقس وظروف الرحلة. كان يعقوب صامتا يتناول طعامه بهدوء كبير، وكأن غلالة تلتف حوله. كنت أتمنى من عميق قلبي لو أحظى بحديث جانبي مطول معه. إننا لسنا مختلفين كما يخيل للبعض، ولكن الناموس كان أقوى على كاهليه وأثقل بينما استطعت أن أتحرر منه حالما فتحت عيني في دمشق أمام حنانيا.

بعد ظهر ذلك اليوم، اجتمعنا كلنا معًا في حلقة صغيرة جعلت الجميع قادرين على أن يروا فيها بعضهم البعض، العين مقابل العين. إن قلبي ممتلئ إلى أقصاه، وأنا في حضرة من عاش مع الذي من أجله كُرس هذا اللقاء. أشعر بقدرة غير مفهومة تلف بجلال هؤلاء الرجال التاريخيين وتلفني معها.

افتتح يعقوب الجلسة باتزانه وهدوئه الرصين. قال كلمات قليلة مقتضبة مهدت للقاء، ثم طلب مني ومن برنابا أن نقدم ما لدينا. تطلعت في يعقوب نظرة ثابتة لثوان قليلة ثم مررت بناظري على بقية الإخوة، ورفعت يدي، وبدأت كلامي مثمنًا هذه اللحظة المباركة، لأنطلق بعد ذلك، وأتحدث باستفاضة عن رحلتي

التبشيرية وكل الأنشطة التي قمت بها أنا وبرنابا. تحدثت عن ارتداد الوثنيين واستقبالهم للكلمة، وقدمت تطيوس الذي أتى معي، وقبل هذه الرحلة الطويلة ليكون مثالًا حيًا على ذلك.

– أيها الإخوة، إنني على معرفة جيدة، لطالما ولدت يهوديًا على دين موسى، إن في تعاليمه الكثير حول علاقتنا بغير اليهود. ربما بعضها لم يأت من فمه مباشرة، وربما البعض الآخر خلقته معاناتنا الطويلة كشعب! نعم، نحن نمنع الأمم من تناول عشاء الفصح إلا إذا لم يتم ختان الذكور. نعم، نحن نمنع غير اليهود من المشاركة في أي وجبات كهنوتية قربانية. نعم، نحن نمنع استقبال الغرباء في بيوتنا، لأنهم سيثيرون المشاكل لنا، ويبعدوننا عن عائلاتنا. نعم، نحن نفصل أنفسنا عن الوثنيين ولا نعمل أعمالهم ولا نريد أن نكون شركاء لهم؛ لأننا نعتبر أن كل أعمالهم نجسة وكل طرقهم فاسدة وحقيرة ورجسة. كتبنا وتقاليدنا تقول ذلك. نحن حتى لا نلمسهم، ولا نأكل من أطباقهم، ولا نتزاوج مع نسائهم. هذا نحن، وأنا أفهم هذا التقليد جيدًا، وأفهم أيضًا هذا الجرح الكبير الذي ما زال يكبر، ويلتهب في قلوبنا بعد عودتنا من المنفى. مجموعاتنا الصغيرة هنا وهناك انكمشت على نفسها وتعاليمها، وأخذت تعيش في وسط اعتبرته مهددًا لها في كل شيء، يا للغرابة والعجب! لقد أصبحت مواقفنا كلها مليئة بالشك والخوف ظانين أننا نمنع حدوث ما حدث لنا في الماضي بابتعادنا عن الأمم وعن أي تأثير أجنبي مهما كان والذي، برأينا، أدى إلى المنفى في المقام الأول. أليس هذا ما حصل؟ أليس هذا ما يحصل الآن؟ إننا، أيها

الإخوة نحارب في هذه اللحظة الحاضرة، الآن وللتو، عدوًا غير موجود إلا في عقولنا؟ بل إننا نمشي في الطريق المؤدي إلى حتفنا وانقراضنا حين نحمي أنفسنا بهذه الطريقة العجيبة المؤلمة. نبي دمشق أكبر من كل هذا التقليد وتلك المخاوف وهذه القوانين الصغيرة، بل إنه أتى أصلًا لكي يكسرها. هذه هي الوليمة الكبرى التي أنتم مدعوون إليها وترفضونها رفضًا غريبًا فتغسلون أياديكم بعد مصافحة الغريب، وتنفرون من الأكل مع الآخرين وتبحثون من دون كلل ولا ملل عن قصابين يهود هنا وهناك لكي تشتروا اللحم منهم، وإلا دونكم الجوع!

وقاطعني أحد الإخوة بصوت نافد الصبر:

– ولكن يا بولس، ألم يقل الناصري "إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا"[1].

– بلى، لقد قالها، وأرادها أن تنفذ في تلك المرحلة بالذات لا أكثر ولا أقل! المدن اليونانية الوثنية تملأ الجليل من أقصاه إلى أقصاه، وتعيش معزولة عنا، عن اليهود. ونحن والسامريون نكره بعضنا البعض، ولم يكن الوقت مناسبًا، برأيه، للاتصال بهم في تلك الفترة. الكراهية والإهانات والجسور المقطوعة تمنع ذلك. أليس كذلك؟ ولهذا هو طلب أن نبدأ أولًا بخراف إسرائيل الضالة.

وصاح أحد الإخوة:

– وكيف يكون هناك خراف ضالة في إسرائيل ولدينا الناموس؟

---

(1) متى: 10–5.

– أنت قل لي! أنت قل لي أيها الأخ الحبيب! أيها الإخوة، كان على اليهود أولًا أن يقتنعوا بما أتى قبل أي أحد آخر. لكننا لم نفعل وإنما خرج الضالون من بيننا، وقتلوه قتلًا تآمريًا مؤلمًا، أليس هذا ما حدث؟ إننا المعنيون قبل أي أحد آخر بالخلاص الذي رفضناه، وقتلناه بينما تلقفه الوثني بفرح عظيم!! أليس هذا ما يحدث!!

كنت أتحدث بانفعال وشغف واضحين بينما يداي تتحركان من أجل الإقناع كما هو حالي في كل محفل أو خطبة. لقد كان الجميع صامتين يستمعون بانتباه على حين كان يعقوب يجلس بجسده النحيل، وقد طأطأ رأسه مصغيًا متفكرًا، يفتل بين أصابعه خيطًا التقطه من ثوبه، وأكملت:

– إننا نعتقد أننا منفصلون عما أتى قبلنا، وما سيأتي بعدنا وهذا هو خطؤنا الكبير. إذا ما كانت هناك أية نبوءات في كتبنا فهي تحققت تحققًا منجزًا كاملًا! إننا لم نولد توالدًا ذاتيًا، ولا يمكن أن نبقى في حفرة الناموس للأبد. الوثني، على عكسنا لا يفكر بهذه الطريقة.

وخرج صوت منددد:

– هل تفضل الوثني على اليهودي يا بولس!!! إنك تجنح كثيرًا بأفكارك!

وفي الحال قررت أن أذهب إلى أقصى ما يمكنني الذهاب إليه:

– حاشا أيها الأخ الحبيب، حاشا أن يكون هذا قصدي فأفضل أحدًا على أحد، لكن إذا ما منحتموني بعض الوقت فإنني سوف أوضح أيها الإخوة الفكرة التي أريد إيصالها فلا أتهم بالتطرف!

مدّ يعقوب، كرئيس للجلسة، كفه متوجهًا إليّ:

– إننا مصغون يا بولس. لك الوقت.

هززت رأسي مبتسمًا شاكرًا، وانطلقت في كلامي بنفس الشغف والانفعال:

– الوثني الذي لا يؤمن بالتوحيد مثلنا، يؤمن، بالمقابل، بآلهته وبكل تلك القصص المرتبطة بهذه الآلهة. إذا كنتم تعتقدون أن هذا ما يفصله، ويبعده عنا، فلربما أنتم مخطئون. إن قصص آلهته بالذات هي ما جعلته يدخل في العقيدة الجديدة الحية بهذه السرعة واليسر.

والتفتّ نحو الإخوة المتمسكين بالناموس والختان، وأكملت:

– إنني على معرفة بالكثير من آلهة سورية وآلهة كل الأصقاع التي حولها وعلى معرفة بقصصها التي ربما لا تدخل في عقل بشري. توقيت الولادة، الولادة من عذراء، ظهور النجم الدليل في ذاك اليوم، فرح الملائكة به ومباركتهم له، التعميد بالماء المقدس، الشيطان الذي ظهر عارضًا عليه أن يكون ملكًا لهذا العالم، انتهار الإله له، وصاياه بمحبة الأعداء والتخلي عن الممتلكات، اختياره لاثني عشر تلميذًا ليكونوا معه؛ ليوصلوا كلمته إلى كل المسكونة، محاكمته والحكم عليه بالموت، تنفيذ الحكم على خشبة الصلب، الظلمة التي عمت الكون بعد موته، ثم موته الذي اعتبر فداءً عن البشرية كلها ثم الدفن بكل تفاصيله. حتى المسامير التي ثقبت القدمين واليدين وحراسة الجنود لقبره، واختفاءه من القبر ثم قيامته وصعوده إلى السماء وعودته إلى الأرض، ليحكم ثانية، كل هذه

موجودة حرفيًا في قصص الآلهة كريشنا، وأندرا، وميثرا، وبعل، وبوذا، وتموز، وأوزوريس. حتى محاكمة نبي دمشق تتقاطع في كثير من تفاصيلها مع محاكمة بعل، وكأننا نقرأ عنها كلها في كتاب واحد...!!!

رأيت الوجوم المصعوق على وجوه الجميع، لكني أكملت:

– إذا أيها الإخوة، الوثني يعرفها أكثر منا! إنه يعرفها من خلال آلهته التي يخاف منها وعليها ويقيم من أجلها التماثيل مع أن هذه الآلهة لم توجد في الواقع وإنما هي محض خيال. لكن طالما أن مصدرها وكاتبها مجهول، فنحن لا نستطيع أن نقاومه! طالما هو مجهول فهو حكمًا مقدس! طالما هو مجهول فلا يمكن لأحد أن يسأل ويتساءل!! أليس كذلك! ألم نقرأ كتبًا عظيمة فيها حكايا أعظم بكثير من هذه، ومع ذلك فنحن لا نعتبرها مقدسة لأننا نعرف كاتبها!

الصمت الذي وقع على الجميع كان سميكًا لدرجة شعرت أنني يمكن قطعه بالسكين، لكني أكملت:

– ربما تقولون الآن في قلوبكم: لكن هذا ما حدث له بالفعل! كيف يمكن أن يكون متطابقًا مع تلك القصص المختلقة؟ كيف؟ اسمحوا لي أن أؤكد لكم أيها الإخوة أن هناك ألف مسيح ولد من عذراء، وصلب، وقام وابن الخالق أطلق عليه. إن حكايا الآلهة متشابهة في هذه المنطقة، بل حتى إنها متشابهة مع أنبياء الهند البعيدة. ربما اعتقدنا، كبشر أن هذه هي صفات العظمة التي تليق بإله أو نبي، أي أن يولد من عذراء ويكون والده هو الله بذاته! من

يدري! وهكذا أخذنا نلبسها لكل إله نخترعه بسبب جاذبيتها ودقة تفاصيلها إلى أن وصلنا إلى اليوم الذي ألبسناها إلى رجل من لحم ودم. ولكن، من يهمه كل هذا إن حدث بالفعل أم لم يحدث؟! من يهمه! أنا، بولس الذي يقف أمامكم الآن في هذه اللحظة المباركة، أقول إنني كنت سأومن بالكلمة حتى لو كان قائلها أيًّا كان! لا تذهبوا أيها الإخوة في عقلكم إلى أماكن جرداء لا يمكن أن تقدم لكم حلًا على أية معضلة. لنبقَ في الجوهر ولنترك القشور الكثيرة التي راكمناها عبر الحقب فوق عقولنا التي أكلها الناموس وطقوسه، ولا تخافوا، ولا يدخلن الشك إلى قلوبكم من كلامي؛ لأنني لم أقله لكي أهز وجدانكم، إنما على العكس تمامًا. لقد أطلقت على تعاليم الناصري لقب صغير وبسيط، وهو "الكلمة" أما هو فقد أسميته نبي دمشق لأنني عرفته معرفة حية في دمشق الحبيبة مكتملًا في المعنى الذي هو أقوى من أي شكل آخر. إن قيمة الكلمة لا تأتي من الولادة من عذراء ولا حتى من أي تطابق أو اختلاف مع أي قصص قديمة أخرى. إن نبي دمشق هو معنى الكلمة وجوهرها، وهذا بالذات ما يجب علينا أن نتمسك به، ونبشر به! أما جوهر الكلمة إن كنتم تتساءلون فإني أختزلها بالمحبة اللامشروطة والخالصة. الأضاحي التي تقدم على مذابح الآلهة وفي المعابد لا تساوي شيئًا أمام الدخول في نفق المحبة اللامشروطة أيها الإخوة والتي هي لب تعاليم نبي دمشق.

سكت وتطلعت إلى يعقوب، فألفيته في حالة إصغاء شديد وذهول فأكملت مبتسمًا برقة:

– إن الكنيسة التي أتوق لكي نبنيها معًا يجب أن تكون راسخة فوق صخرة الكلمة، وليس فوق المحرمات والمحللات والطقوس التي لا نفع منها والختان المؤلم.

ها أنا، أيها الإخوة قد قلت كل ما في قلبي حتى آخر قطرة. أعرف أنني ذهبت إلى أقصى ما يمكن أن تتوقعوه، وتنتظروه مني، ولكن هذا هو النبي الذي أبشر به والذي رأيته بعين قلبي والذي أريدكم أن تروه أنتم أيضًا. والآن، وبعد أن اشتد عودنا وحلت قدرة الكلمة علينا، وأصبحت لدينا مواهب خارقة في التحمل، فإن علينا أن نصغي لما قاله لنا: "اذهبوا، وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم"[1]، وعند هذه النقطة أقف. كونوا مباركين.

قبل أن أجلس على المقعد المخصص لي، سرت همهمة بين الإخوة فيها استغراب كبير. ربما استفاقوا من صدمة ما قلته للتو، وفجأة، علا صوت معترض:

– ما قلته مهولٌ وغريبٌ، ولم نكن نتوقعه! ما قلته غريبٌ! إننا ناموسيون إلى يوم الدين، ومع ذلك نأبى أن تضع الناصري في مصاف الآلهة الأخرى! ربما كان كل هذا مصادفة! وحتى ولو كنت محقًا، لا يمكن أن نتجاوز الختان ولا الحفاظ على الناموس.. هذه قدس الأقداس بالنسبة لنا. حتى تيطوس الذي اصطحبته معك هو تحد كبير لنا، يجلس معنا من دون أن يكون مختونًا. إننا نشذ شذوذًا كبيرًا. إذا كنت مصرًا على حضوره معنا فاجعله يختن أولًا.

---

(1) متى/ 28–19 : "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم".

كنت أتوقع هذا الموقف من البعض ذلك أن الانتقال إلى ذاك "النبي" الذي أبشر به، لربما يحتاج إلى تجاوز كبير في النفس والعقل بالنسبة لبعض الإخوة، وطلبت حق الرد مرة ثانية من يعقوب، فأعطاني إياه بإشارة من يده:

– أيها الإخوة، أنتم تطلبون أن يختن رجل في منتصف العمر؟ إنكم تعلمون أن هذا قد يضع حياته في خطر! ما هذه الشروط التي تطلبونها لكي تخلصوا الإنسان! الختان احتفال دموي عنيف قبلنا هذا أم لم نقبل! إنكم تجعلون منه في لب العقيدة بينما حين طلب منا أن ننطلق إلى الأمم، قال لا تحملوا شيئًا للطريق؛ لا عصًا ولا خبزًا ولا فضة، ولا يكون للواحد منكم ثوبان. وأي بيت دخلتموه فهناك أقيموا، ومن هناك اخرجوا. وكل من لا يقبلكم اخرجو من مدينته وانفضوا الغبار أيضًا عن أرجلكم شهادة عليه. إن المخطط، أيها الإخوة، قد رسُم لنا من دون أي داع لتحريفه. لقد قال لنا أطلقوا الكلمة في اليهودية والسامرة[1] ومنها إلى أصقاع الأرض. إننا بدأنا الكلمة في أورشليم ومنها إلى قيصرية وكيلكيا وكل فينيقا ومن بعدها إلى العالم. إنني الآن قدام الجميع قد قلت كلمتي متمنيًا أن تلقى صدى توافقيًا في قلوبكم. ابقوا مباركين.

انفض الاجتماع الأول بعد أن أنهيت كلمتي بشيء من الصخب من دون أن نصل إلى أي قرارات حاسمة. حين أخذ الإخوة يتجمعون ضمن حلقات صغيرة للنقاش، اقتربت من بطرس ويعقوب عارفًا أنه لربما في الخلوات الصغيرة والضيقة يمكن أن

---

(1) اليهودية والسامرة: هي اليوم منطقة الضفة الغربية المحتلة.

نعثر على الحل. وضعت يدًا على كتف بطرس وأخرى على كتف يعقوب، رئيس المجمع والبطريرك المهاب، مشكلًا حلقة ضيقة منا نحن الثلاثة، وقلت مبتسمًا:

– إني أتطلع بكل شغف لكي أستمع لرأيكما بما قلت. أعرف أنني ذهبت بعيدًا بالنسبة لكما؛ لكن فرحي كبير بأنني قلت كل ما أفكر، وأعتقد به.

ردّ يعقوب في الحال:

– نعم.. أنا أعتقد أن الخلاص يأتي منه أو نبي دمشق كما تسميه، من الكلمة تحديدًا وليس من أي مصدر آخر. إن ما قلته عن الآلهة الأخرى جعلني أختش، وأجفل. لم يخطر ببالي أبدًا وجود مثل هذا التقارب، ولم أقم بالمقارنة ولو لمرة واحدة! ما قلته غريب حقًا!

كان بطرس يصغي مائلًا برأسه إلى الأمام من دون أن يتدخل في الحوار.

– الحق، إنني لم أقل هذا لكي أعقد الأمور، وأنما لكي أبسطها، ولكي نضع انتباهنا على الجوهر، وليس على أي أمر آخر. ولهذا سأقترح أن نقوم بتوزيع مناطق نشر الكلمة فتكون الأمم من نصيبي، ولنطرح الأمر في الاجتماع التالي بعد أن نترك الجميع يتحدث، ويقول ما لديه. هل أنتم موافقون أيها الأحباء على ذلك؟

ردا بصوت واحد: "موافقون".

اللحظة الحاسمة

أخذ الإخوة مكانهم في غرفة اللقاء الواسعة بعد غذاء مشترك. طلب يعقوب باعتباره رئيس المجمع أن يَفتتح بطرس الجلسة، ويطرح ما لديه. كنت أجلس كمن على رأسه تاج مضفر. إن لدي إحساس طاغ صامت في داخلي يسر لي أن الرؤيا التي وقعت لي في الطريق إلى دمشق هي بقوة دعوة الرسل الأولين. إن التواضع والخجل يمنعاني من التطلع مباشرة في وجه هذه الفكرة التي لمعت في عقلي مثل البرق، واختفت. إن الحوادث الصغيرة هي التي تحرك الجبال، وتقود الطرق في اتجاهاتها.

خطف عيني وقلبي بطرس في حديثه. كنت أصغي وأنا في كامل انتباهي، على يميني يجلس كلٌّ من برنابا وتيطوس. إن مهابة هذا التجمع أشعرها في كل خلية في جسدي. إنني أقف كتفًا بكتف مع التلاميذ الذين كانوا معه في كل المراحل وتقاسموا الخبز والخمر.

وأُعطيت الإشارة لبطرس لينطلق في الكلام:

– أيها الرجال الإخوة.. تعلمون أنه منذ أيام قديمة قد اختارني الله لكي تسمع الأمم من فمي الكلمة، وتؤمن. نعم، إنني أتحدث عن كرنيليوس، قائد المئة الروماني في قيصرية. كان رجلًا تقيًا مصليًا ويفعل الخير. أتاه ملاك في رؤيا يطلب منه أن يستدعيني ويتحدث معي. لقد حضرت إليه من يافا، وتحدثت معه عن الكلمة فآمن هو وأهل بيته، واعتمدوا، وكان هذا أول وثني من بين الأمم

يهتدي! لقد علمت أنه كان يستنكر عبادة الأوثان، وكانت نفسه تتوق إلى عقيدة أفضل وأكثر خلاصًا. لقد آمن بالتوحيد الذي نقول فيه في اليهودية. قرأ أسفارنا وأقام صلواتنا وصيامنا وكان مؤثرًا في أهل بيته وجنوده وخدامه، والحق، هناك الكثيرون مثله يبحثون عن الخلاص، هل ندير ظهورنا لهم!! الله العارف ما في القلوب لم يميز بيننا وبينهم في شيء، وإنما طهر بالإيمان قلوبهم. وإذا، لماذا تجربون الله بوضع هذا النير على أعناق الإخوة، نير ثقيل لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله؟ لماذا تجربون الله؟ إن الكنيسة ليست ملحقة بالمجمع اليهودي أيها الإخوة، أقول هذا ليكون كلامي واضحًا وضوح الشمس!

جلس بطرس بعد أن أنهى خطابه وسط صمت كبير عم المكان. كان قلبي يخفق بسرعة قصوى أتطلع من دون تحد إلى الإخوة بفرح مكبوت. هز يعقوب برفق الصمت برصانته قائلًا من دون لف أو دوران:

– إنني من رأي بطرس. من دون شك إن الله يريد لكل البشر أن يخلصوا بالكلمة.

لكنه أسرع ملطفًا الجو أمام الفريق الفريسي المعارض:

– لكنني لست خائفًا على الناموس إذا كان هناك فئة تعمل إلى تحقيق مثاليته. إنني أقترح أن تكون المحبة هي الجسر الذي يربط بين وجهتي النظر، فلا يحتقر مسيحيو الأمم عادات اليهود المتنصرين والعكس صحيحٌ. إن اليهودية لم تنحرف، ولم تضل خراف إسرائيل، ولم تسقط خيمة داوود من فوق رؤوسنا إلا بعد أن

التهينا التهاءً كبيرًا بالطقوس أكثر من الكلمة، بالحرف أكثر من المعنى. اعلموا أن قبول الأمم بالعقيدة الجديدة إنما قد تم التنبؤ به في الكتب القديمة، لهذا أرى ألا نثقل على المتنصرين من الأمم أن يتمموا الشريعة أو أن يختنوا كشرط لكي يقبلوا الكلمة. وعني أنا، أقول أنه يكفي للأممي المتنصر أن يمتنع عن الاحتفال بولائم الأصنام والتوقف عن ممارسة الزنا التي عند البعض هي جزء من وثنيته المقدسة، وكذلك الامتناع عن أكل الحيوانات المخنوقة والتي ما زال دمها فيها. لنكتب كل هذه التوصيات أيها الإخوة، ولتختاروا أخوين من بيننا فيسافران مع بولس وبرنابا إلى مجامع أنطاكية وسورية وكيليكا لكي يبلغوهم بهذه التوصيات. ابقوا مباركين.

لقد مسك يعقوب العصا من منتصفها بذكاء كبير. سوف يُهدئ هذا حتمًا من روع الأنطاكيين الذين كانوا ينتظرون قرار المجمع الأم بقلق كبير، لكنه لم يهدئ من روعي كثيرًا فبين "الضروري" و"الذي لا يمكن الاستغناء عنه" درجات كثيرة أبقت الناموس إجباريًا وليس خياريًا".

وجهًا لوجه في أنطاكية

أُرسلت التوصيات المكتوبة مع أخوين رافقانا إلى أنطاكية هما سيلا وبرسابا وذلك لكي يشرحاها شفاها إلى الأنطاكيين. توقعت أن يزاح حجر عن صدور المنتظرين وهذا ما حدث إذ تلقفوها بفرح كبير عارفين إن إيمانهم سليم ليس بحاجة إلى ناموس ولا إلى ختان، وهكذا هدأ الصراع بين الطرفين، ولانت القلوب، وصفت لبعض الوقت. أعرف في قاع قلبي أن مثل هذه القرارات لربما مست بطرس بشكل ما لكن فيما نقوم به لا غالب ولا مغلوب وكلانا يعرف هذا، ويطيعه. انحنى بطرس لكل هذه التوصيات، قبلها ربما عن مضض بقدرة الحب الذي غلب في قلبه المتقد والخائف. هنا، في هذه اللحظة الدقيقة تتجلى الحرية الدينية إلى أقصاها. الصالح العام يفترض هذه الحرية بل يطلبها لكي تستمر الأمور، وتبقى في نصابها الصحيح. لقد أعلن نبي دمشق أنه "رب السبت"، السبت الذي هو الناموس بذاته، وإذًا من يريد بعد الآن أن يقيد عنقه بحبل تم الدعس عليه خلال التقدم إلى الأمام.

أنا وبطرس لسنا ندّين، وإنما روحان مختلفتان من دون أن يمنع ذلك المضي في رحلة مشتركة. لقد عاش هو نفسه خبرة التبشير بين الأمم ودافع عنها، لكن ما حدث لاحقًا جعلني أفهم أن عصيان الناموس يأتي معه شعور كبير بالذنب والخوف. كان بطرس قد حضر إلى أنطاكية طائفًا على بعض المجامع، وكان يرافقه تلميذه يوحنا مرقص. لقد سحر بروح الأنطاكيين الوثنيين المتنصرين، فلم يتردد في حضور مآدبهم وتناول طعامهم. كان اتصاله بتلك

العائلات من دون تكلف أو حواجز. لم يكن يرفض أن يأكل "أرنبًا أو لحم خنزير أو لحم سلحفاة من العاصي"، وكان الأنطاكيون فرحين به وبتحلقهم حوله إلى اليوم الذي بعث يعقوب بقوم يراقبونه بعد أن أرسل اليهود والمتنصرون شكواهم إلى أورشليم فاتنين عن سلوكه ومنزعجين من أنشطته. لقد ضاع المسكين مرة ثانية، وأخذ يتجنب ما كان يفعله عند أول قدومه منسحبًا شيئًا فشيئًا عن موائد المحبة الكثيرة التي يدعى إليها.

إنني أعرف بطرس كباطن كفي، أعرف هذا القلق والتأرجح في قلبه، وكذلك أعرف حبه لنبي دمشق الذي أنكره، وعاد فندم. لم يصدمني كثيرًا موقفه بقدر ما فعل برنابا الذي أخذ يتبع سلوك بطرس ظانًا أن مثل هذا الموقف يمكن أن يحل الأزمة. لقد بدأ قلقي يكبر، وشكي يأخذ بكل عقلي. هل كانت مقررات المجمع مجرد كلام على ورق فقط لإسكاتي؟ هل هم يعملون من وراء ظهري لكي يقلبوا كل هذه المقررات، ويبيدوها؟

دارت الدنيا حولي أنا وبطرس، في أنطاكية، حين وقفنا وجهًا لوجه في ذاك اليوم الهارب من الزمن. كنا نتطلع في عيون بعضنا البعض مباشرة كمن يريد أن يبارز بالسيف. كان حولنا الكثير من اليهود واليونان المتنصرين، مع ذلك، لم يجعلني أي اعتبار أن أمسك نفسي عن الكلام، وعلا صوتي بقوة:

– يا بطرس! إن كنت، وأنت يهودي تعيش أمميًا لا يهوديًا فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا؟ لماذا؟ إن إعمال الناموس لا يبرّئ الإنسان وإنما بالكلمة التي هي روح نبي دمشق. بالكلمة التي هي

المحبة المطلقة. الإيمان بالكلمة يفعل، وليس الناموس. إنني مت بالناموس؛ لكي أحيا بالله يا بطرس! لو كان هناك بر في الناموس إذا فلأي سبب مات نبي دمشق!! هيا قل لي؟ لأي سبب مات نبي دمشق معلقًا!!

والتفت إلى الناس المتحلقة حولنا بشيء من نفاد الصبر والاستغراب:

– أيها الإخوة، من رقاكم حتى لا تذعنوا للحق أنتم الذين أمام عيونكم قد رُسم نبي دمشق مصلوبًا! كيف وصلت روح الكلمة لكم، أبالناموس أم بخبر الإيمان؟؟ كيف تبدؤون بالروح وتكملون الآن بالجسد!!

وتطلعت إلى بطرس فرأيته يصغي مقطب الحاجبين وكذلك برنابا الذي كان واقفًا مع بقية الحشد، فأكملت:

– أعرفكم أيها الإخوة أن الكلمة التي أبشر بها لم أقبلها من عند إنسان، ولم أتعلمها من أحد، ولكن نبي دمشق قد أعلنها لي. ربما سمعتم بسيرتي قبلًا، إني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط، وأتلفها، وكنت متقدمًا في اليهودية على كثيرين من أترابي حيث كنت غيورًا وبشدة على تقليد آبائي. لكن حالما وصلت لي الكلمة لم أستشر لحمًا ولا دمًا ولا صعدت إلى أورشليم لأرى، وأستشير الرسل الذين قبلي بل انطلقت إلى العربية ثم رجعت إلى دمشق.

والتفت إلى بطرس:

– بعد ثلاث سنوات صعدت إلى أورشليم لكي أتعرف عليك يا بطرس، ومكثت عندك خمسة عشر يومًا! هل تذكر!! بعدها

فقط جئت إلى أقاليم سورية وكيلكية. ثم بعد أربع عشرة سنة عدت ثانية إلى أورشليم مع برنابا آخذًا معي تيطس أيضًا. يا بطرس، أنت ملوم. قبل أن يأتي مبعوثي يعقوب إلى أنطاكية كنت تأكل مع الأمم، ولكن عندما أتوا أخذت تعتذر وتخاف. هل نسيت كرينليوس!!! هذا الوثني! من الذي أوصل الكلمة له!!! أليس أنت!!؟

واستدرت فجأة باتجاه برنابا:

– وحتى أنت يا برنابا انقدت إلى ريائهم، وبدلت، وغيرت! إني أذكركم، أكنتم يهودًا أم يونانًا، عبيدًا أم أحرارًا، رجالًا أم نساءً... كلكم واحد، سريان من أرض سريانية، وبنفس القدر أمام نبي دمشق! وبعد هذه النقطة ليس لدي كلام آخر أضيفه.

رأيت دمعة كبيرة تنفر من عين بطرس من دون أن يحرك ساكنًا.

برنابا، صديقي

تشبه تطلعات كنيسة أنطاكية الأفق اللامحدد، صعبة المنال. إن الحرية الدينية التي يتوقون إليها لطالما كانت أكبر من أي قرار خرج عن مجمع أورشليم. مع ذلك، فالحماس الذي كان متقدًا فيما مضى تجاه هذه الحرية هدأ بعض الشيء إذ مكثنا أنا وبرنابا في هذه المدينة نعلم مع بضعة إخوة آخرين، ونبشر بالكلمة. الأحوال تتغير مع مرور الزمن، وتتبدل معها الأفكار والمواقف والتطلعات وحتى المواصفات. الزمن يفعل فعله بقوة في العقول العصية أمام المعرفة ومصادرها، أما المنفتحة أمامها فإنها هي الأخرى تتغير، ولكن بطريقة أجمل، وأبهى.

كانت لحظة مباركة حين أتى برنابا ليعثر علي في طرسوس منذ سنوات طويلة، ولنبدأ معًا هذه الرحلة الشاقة والجميلة. لقد عرفت قدمانا المتعبتان الجبال الممتدة من أقصى سورية لأقصاها. إنها سنوات المشارفة على الموت ثم العودة إلى الحياة وكذلك سنوات العمل الشاق باللحم الحي والروح المتقدة.

بعد عودتنا من أورشليم إلى أنطاكية بقينا فيها نعلم ونعظ إلى أن شعرت أنه آن الأوان لكي ننطلق مرة ثانية إلى الأصقاع المجاورة وحتى البعيدة. لا لم يفسد الناموس محبة الواحد فينا للآخر، ولم تفسده كلمتي الغاضبة التي وجهتها له خلال المواجهة مع بطرس. برنابا يعرفني، ويعرف قلبي جيدًا. يعرف السيف المسنون في غمده والجاهز للاستعمال في أول مناسبة متى شعرت أن هناك تشويهًا للكلمة وسوء تطبيق لها. واقترحت عليه:

– دعنا يا برنابا ننطلق إلى المدن التي فيها لنا إخوة، وكذلك إلى المدن الأخرى البعيدة!

– أنا معك في كل درب يا بولس، أنت قائد الحملة، ولكن دعنا نصطحب معنا نسيبي مرقس... الله العارف كم يحز في قلبه الخطأ الذي اقترفه عندما هرب من بارغي، وهو يريد إصلاحه بكل قوة قلبه.

لا أعرف إن كان حكمي قاسيًا أم لا، ولكني رفضت أن يأتي معنا. إن إحساسي بمسؤولية ما نقوم به طاغ علي، وهو يقودني. لقد رأيت أن مرقس ليس في قدرته الذهاب معنا حتى ولو أصر على ذلك. العلاقة القوية بينه وبين خاله برنابا خفت أن تعيق هذا الأخير عن الحركة، ونحن في ترحال طويل وظروف لا نعرفها.

– أرجوك يابولس.. أعد النظر في هذا القرار.. أنا أضمن أنه قادر على ذلك. يكفي رغبته القوية في القدوم. أعطه الفرصة لكي يبرهن لك على ذلك!

دار جدال بيني وبين برنابا. لم يفهم ما قلته له، ولم أفهم هذا التمسك بمرقس من قبله. لقد كان قراره كبيرًا إذ عزم على الرحيل مع ابن أخته إلى قبرص، مسقط رأسه، حيث قال: إنه سيكمل العمل هناك.

أأنا قاسي القلب أو ناكر للجميل؟ هل انفصالنا خطأ كبير ارتكبناه بالعناد والتمسك بمواقف شخصية واعتبارات تخص كلًّا منا؟ إن وجه هذا الصديق الجميل سيظل أمامي طوال الباقي من حياتي، متذكرًا تعابير الهلع التي علته عندما انحنى فوقي بينما كنت مرميًا، بين الحياة والموت، خارج أسوار مدينة ليسترة. سوف أتذكره دائمًا في حلّي وترحالي عارفًا أنه سيبقى وفيًا إلى آخر قطرة من دمه لنبي دمشق.

السنة التاسعة والأربعون، الطريق إلى أوروبا

بعد أن رحل برنابا ومرقس إلى قبرص، قررت أن أنطلق باتجاه روما، المدينة الحلم وبوابة الإمبراطورية كلها من أقصاها إلى أقصاها. لكن في الطريق إلى هناك، على أحلامي أن تعبر سوريا أولًا فتتبارك منها. الأحلام الكبرى يجب أن تعبر جبالها ووديانها ومماشيها وحواضرها وقراها الجميلة الكثيرة، يجب أن تعبر ثقافاتها المتعددة وكذلك آلهتها ومعابدها. إن أحلامي تنضج فيها، أحلامي الممتدة من طرسوس وحتى قبرص وما بعد بعدها، والتي يتطلع برنابا ومرقس إلى الوصول إليها آمنين. إنني أنتظر التدبير الإلهي ليقودني، أنتظر الشعلة التي تتحدث في قلبي لترسم لي الطريق خطوة خطوة، لكن الدرب لايستقيم من دون رفيق، فيجعل منه ذا فوائد مضاعفة. إن سيلاس الذي حضر من أورشليم إلى أنطاكية سيكون خير أخ للرحلة القادمة. إن عاطفته لا تقف عند حدود أي ناموس إنما تتطلع مثلي إلى الجوهر.

الوقت ربيع، وهو الوقت الذي يقرر فيه الملوك والأباطرة شن الحملات وغزو الجوار، وكذلك هو الوقت الذي تنتعش فيه التجارة بين الأصقاع، فينطلق التجار على ظهور دوابهم العالية على الطرقات باتجاه المدن والقرى البعيدة. لقد قررت أن أنطلق باتجاه الغرب، ولكن عبر سورية فأزور الكنائس الجديدة في شمالها وكذلك كيليكيا لأشد من أزرها وأزر أهلها.

راح بي الدرب أنا وسيلاس باتجاه الشمال حيث كان علينا

اجتياز سد بحيرة أنطاكية[1] ثم أكملنا صعودًا نحو جبال الأمانوس[2] بين أشجار الغار والآس وكذلك أشجار السنديان والشربين في المرتفعات الأعلى. مررنا بحصن "باغرا" الذي بناه الجنود الرومان ليحمي مضايق الأمانوس وهناك التقطنا أنفاسنا، ونحن نلقي نظرات متعبة على سهل أنطاكية وراءنا ثم ما لبثنا أن انحدرنا، بعد ساعة من السفر، باتجاه المضيق الذي يسمى "باب سوريا"، ليُفتح الدرب أمامنا، من بعد هذه النقطة، إلى إسكندرون[3]. منذ أكثر من

---

(1) بحيرة أنطاكية: وتسمى أيضًا بحيرة العميق لوقوعها وسط سهل العميق في تركيا اليوم. وهي بحيرة كبيرة ذات مياه عذبة في حوض نهر العاصي في لواء إسكندرون. كانت تقع شمال شرق مدينة أنطاكية القديمة (أنطاكيا الحديثة). تم تجفيف البحيرة خلال فترة امتدت من الأربعينيات وحتى السبعينيات. تغطي البحيرة تاريخيًا مساحة تبلغ حوالي 300–350 كيلومترًا مربعًا كانت تزداد خلال فترات الفيضانات.

Çalişkan, V. Human-Induced Wetland Degradation: A case study of Lake Amik.

(2) جبال الأمانوس: سلسلة جبلية تمتد من الشمال إلى الجنوب بموازاة ساحل خليج السويدية وخليج إسكندرون في تركيا اليوم. تصل هذه السلسلة شمالًا حتى جبال طوروس عند مقاطعة عثمانية وجنوبًا حتى ممر بيلان. وهي سلسلة جبلية عالية ذات طبيعة ساحرة وخضراء جدًا وكثيفة الغابات. تعدّ الحد الفاصل الشرقي بين محافظة لواء إسكندرون وسورية اليوم.

Merriam–Webster›s Geographical Dictionary, Third Edition.

(3) إسكندرون: تقع الإسكندرون في رأس خليج لواء إسكندرون، السوري تاريخيًا، على البحر المتوسط. يُعتبر لواء إسكندرون في سورية المحافظة الخامسة عشر، رغم كونه منذ 1939، تابعًا لتركيا. عام 1938 قامت فرنسا "بخطوة غير مسبوقة واستفزازية" إذ أعادت منح اللواء حكمًا ذاتيًا مع بقائه مرتبط من ناحية شكلية

ثلاثمئة عام دارت في مدينة آسوس في إسكندرون معركة لطالما قرأت وسمعت عنها بين الإسكندر الكبير وداريوس ملك الفرس. أنى لي أن أتحدث اللغة اليونانية، وأعرف ثقافتها المنتشرة في كل الإمبراطورية الرومانية إذا لم يكلل النصر جبهة الإسكندر، ويحطم القوة البحرية الفارسية الكبرى. إن عقلي اليوناني وروحي السريانية هما اللذان جعلاني أعرف نبي دمشق، أفهمه، أكتشفه، أخترعه، أجعله من لحم ودم، أنزع حكايات الأساطير عنه، وأبعثه متجددًا بذاته وجوهره. لقد كانت هذه المعركة لحظة مباركة حين ولدت سوريا الهلنستية واتحدت فيها كل علوم الشرق بفلسفة الإغريق العظيمة. إن سيلاس الذي يغذّ خطواته بالقرب مني يعرفني حين أصمت لفترات طويلة خلال السفر فلا يقاطعني. أشعر به كأنه يستمع إلى كل فكرة تطرأ على عقلي مقدمًا لي إشعارًا باستلامها من دون أن ينبس بكلمة. إن جغرافية سورية إذا ما قطعناها مشيًا على الأقدام إنما تفتح العقل على التاريخ مثل بوابة حديدية ضخمة. إن الماشي يتنفس هذا التاريخ حتى في الطيور المهاجرة التي تعبر سماءها، يتنفسه في زهور البراري ورائحة التراب المقدس. إن

بالجمهورية السورية، ثم أعادت إلغاء هذا الرباط الشكلي؛ وفي العام التالي 1939، انسحبت فرنسا بشكل نهائي، في حين دخلت اللواء قوات تركية، وقامت بضمه وإعلانه جزءًا من الجمهورية التركية تحت اسم "هاتاي"؛ وهو ما يعتبر مخالفة لصك الانتداب الذي يلزم الدولة المنتدبة بالحفاظ على أراضي الدولة المنتدب عليها. بلغت مساحة اللواء 4800 كيلومتر مربع، يطل على خليجي إسكندرون والسويدية في الزاوية الشمالية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، ويتوسط شريطه الساحلي رأس الخنزير الذي يفصل بين الخليجين المذكورين. أهم مدنه أنطاكية وإسكندرونة وأوردو والريحانية والسويدية وأرسوز.

روما ليست نهاية المطاف وإنما لأنها قلب هذه الإمبراطورية التي تحكم كل هذا العالم حولي، وهدفي هو أن أصل إلى هناك. أما مكان القلب والروح فإني أعثر عليه هنا في المكان الذي تخطوه قدمامي في هذه اللحظة وللتو. سيلاس يعرف ما في جوفي، ويسمع التنهدات الكثيرة التي أطلقها، ونحن نكمل سيرنا الحثيث.

سمح لنا بعض الكعك المحلى بالعسل واليانسون والزيتون والفاكهة الذي ابتعناه على الطريق في إيصالنا إلى طرسوس. كانت الثلوج التي تعلو قمم طوروس قد أخذت بالذوبان فعرفنا أنه الوقت المناسب للانطلاق. إن جبل طوروس كيليكا العالي الرؤوس يبدو موحشًا في ليل هذه الفترة من العام. لقد مشى على هذا الطريق الذي نسلكه ملوك قدماء عظام، ملوك فارس وآشور وكذلك ملوك هلنستيين مثقلين بوجهات النظر والأحلام، إنها دروب ما فتحت إلا من أجل الغزو والحرب، وكلها تمتلئ بالتحصينات الكثيرة التي يلامس أحيانًا الواحد فيها الآخر.

أكملنا سيرنا إلى أن لامسنا تمامًا أبواب كيليكيا. حتى الفارس العتيق يحتاج إلى بضعة أيام لكي يترك جبل بولكار داغ وراءه كما عليه أن يجتاز مئة فرسخ ليصل إلى الوادي ومنه مرة ثانية إلى قمة طوروس العالية. لقد اضطررنا أنا وسيلاس، أن نغوص في مياه النهر؛ وذلك لأن الجسور المعلقة والتي ترتجف يمينًا ويسارًا قد لا تحملنا إلى الضفة المقابلة. الشمس الصارمة فوق رؤوسنا تجفف ملابسنا من دون أن تمس بالروح التي تجوب فوق سفوح هذه الجبال وترى بعين بصيرتها كيف ينقل النهر الضيق

نحاسيات دمشق وتوابل أريحا وكذلك الكلمة التي أريدها أن تقرع باب قيصر نفسه.

* * *

وقفت أنا وسيلاس نتطلع إلى النهر الهادر، ونتأمل به. لا أعرف إن كنت أستشف شيئًا ما فيه، ولكني لمحت دماءً كثيرة تعكر صفو ألوانه. لقد رجف حتى العظم مني حين رأيت بعين عقلي أتباع الكلمة يُذبحون ذبح الخراف بعد مئات من السنين، ويلقون في هذا النهر الذي روى كل سهول كيليكيا. يا الله! هل أنا أتنبأ! هل أرى المستقبل في هذه اللحظة الخاطفة؟ أي طريق طويل على الكلمة أن تعبره؟

مرت أيام سبعة حتى وصلنا إلى مدينة دربة ومنها إلى ليسترة الموجعة مرة ثانية حيث عائلة ثيموثاس التي كانت تنتظرني على أحر من الجمر. ما إن دلفت من باب المنزل الحبيب حتى لمحت في عيون ثيموثاوس نضجًا واضحًا وابتسامة محببة تنامت على محياه. لقد اشتد عوده وغدا شابًا مفورًا بالتقوى وحب المساعدة. هناك من تعثر في عيونهم ومن أول نظرة على طباعهم الجميلة، وهذا الشاب الهادئ واحدٌ منهم. لم أستطع الانتظار، ما إن سمح الظرف حتى كاشفت ثيموثاوس بسري الدفين ورغبتي في الترحال. أردته أن يكون رفيقي على هذه الدرب، ومن غيره يصلح لها! كان علي أن أخبر فينيكي والدته التي جنبتني الترجي والإقناع فابتهلت حالما سمعت طلبي، ثم وافقت من دون تردد. أي فرح أشعر به! إن هذا الشاب عطية الله لي، ليس فقط تقواه وإنما ثقافته اليونانية التي يعبر عنها قولًا وكتابة. بقي علي أن أرسمه كاهنًا، وهكذا استعجلت بأخذ رأي الشيوخ في ليسترة وقونية الذين كالوا له المديح على

الرغم من حاجتهم له في الخدمة وأمور أخرى. خلال السيامة، رأيت دمعًا غزيرًا في عيني فينيكي والجدة لاويس وتأثرًا كبيرين. لكن ثيموثاوس لم يختن مع ذلك مراعاة لخاطر والده المتوفى. إن الناموس يأمر بذلك مُلحقًا الولد بدين أمه، ومع ذلك كان هناك قيم أكبر من الناموس ذاته؛ خاطر المتوفى الذي أبت الزوجة أن تكسره. لكن ثيموثاوس ليس تيطوس، وإنما هو الرجل الذي سوف يدخل كل المجامع والبيوت باعتباره أسقفًا، وإذًا، فإن ختانه هو مطلب يقع في خانة تدبير الأمر، وليس الانصياع إلى الناموس. سيكون ثيموثاوس رفيقًا مثاليًا أضع يدي على كتفه متى مرضت أو اعتقلت أو حتى فتك بي تعب طارئ. سيكون كاتب رسائلي إلى المجامع الكنسية فذكاؤه الكبير يجعله يألف أفكاري ولغتي لحظة التفوه بها. إن ثيموثاوس هو ابني الذي لم أنجبه.

غادرت ليسترة عائدًا إلى الطريق وبرفقتي سيلا وثيموثاوس. إن هدفي هو أن نُعلِمُ كل البلاد السورية بقرارات مجمع أورشليم، ليكون هناك سلام وسكينة بين المرتدين من أصل يهودي وكذلك الأممين. كانت المجامع الكنسية تزداد تعدادًا في كل الأصقاع. لقد شققنا دربنا باتجاه مدينة فريجية[1] في شمال آسيا وكذلك

---

(1) فريجية: منطقة تحتل قطاعًا كبيرًا مهمًا من آسيا الصغرى. وقد اختلفت تخومها باختلاف الوقت والأوضاع. وبعد أن اقتطعت منها غلاطية أصبحت حدودها شمالًا بيثينية، وشرقًا ليكأونية وغلاطية، وجنوبًا ليكية وبيسيدية وايسورية، وغربًا كاريا وليديا وميسيا. والمنطقة عبارة سهل مرتفع بين سلسلة جبال طوروس جنوبًا وأولمبوس شمالًا وتمنوس غربًا. ذكر من مدنها في العهد الجديد أربع هي لاودكية وكولوسي وهيرابوليس وأنطاكية بيسيدية. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

إلى غلاطية شرقها، وكبادوكية[1] وليدية[2] وميسيا[3] وبسيدية

---

(1) كبادوكية: تقع كبادوكية وسط الأناضول، وكانت محاطة بغلاطية (أنقرة) وليكاؤنيا (قونية) من الغرب، وأرمينيا من الشرق، وبونتوس من الشمال وكيليكيا من الجنوب. تقع كبادوكية على بعد 50 كم تقريبًا من جنوب جبل إرجييس. لكن الانفجارات العنيفة لبركان هذا الجبل غطت المنطقة بأكملها بطبقة سميكة من الرماد البركاني خلال العصور التالية كان سكان كبادوكية يتحدثون لغة مختلفة عن جيرانهم. ذكر الجغرافي والمؤرخ الشهير سترابون عن سكانها في كتابه "جيوغرافيكا" اختلاف سكانها بثقافتهم ولغتهم المختلفة. احتلت هذه المنطقة جيرانها الأقوياء على مر العصور. كان الفرس والمقدونيون والرومان من حكام الأرض وشعبها في أوقات مختلفة. خلال الفترات المبكرة للمسيحية، استقر أول أتباع يسوع ورسله في المنطقة للاختباء من جنود الإمبراطورية الرومانية. والمعروف أن القديس بولس كان يبحث عن مكان آمن بعد طرده من القدس. جاء إلى كابادوكيا وأسس مع أتباعه أول مستعمرة مسيحية في هذه المنطقة. وفقًا لهيرودوت، أطلق جيرانهم في الأناضول على شعب كبادوكية اسم سوريين.

https://biblicaltourguide.com/cappadociaprovince.html

(2) ليديا: كانت إقليميًا يقع في الجنوب الغربي من شبه جزيرة آسيا الصغرى، وأطلق عليها هذا الاسم لأنه قد سكنها الليديون منذ العصر الحديدي، وكانوا من الشعوب الآرية. وكان يحدها من الشمال ميسيا، ومن الشرق فريجية، ومن الجنوب وادي ميياندر (ويسمي الآن: "بيوك منديرس")، وكاريا. أما الحد الغربي فكان شاطئ بحر إيجة، وإن كانت المستعمرات اليونانية قد اعتدت علي حدود ليديا.

(3) ميسيا: وهي مقاطعة (ولاية) من آسيا الصغرى في الزاوية الشمالية الغربية منها منفصلة عن أوروبا الدردنيل يحدها بيثينية شرقًا، وليديا جنوبًا، وبحر إيجه من الغرب، وفيها خرائب تراودة، ولا يفصلها عن أوروبا إلا بحر مرمرة ومضيق الدردنيل. وكانت ولم تزل مشهورة بخصبها.

وليسيا[1]، لكن الخطاب الإلهي، خطاب الروح لم يشأ أن نعمل فيها أو ننشر الكلمة. إن أوروبا تدعونا، وهكذا ركبنا البحر باتجاهها. سوف يغلب نبي دمشق آلهة الأولمب ذاته، وهل تقاس طروادة بمجد دمشق! ما زال الحلم الذي راودني يحيا في داخلي، حلم قوي حدث في يقظة هدأة الليل حين تحضر الأفكار التي تقلب حياة الإنسان وتدفعها باتجاه محدد. لقد دعاني رجل مقدوني وأنا بين اليقظة والحلم، قائلًا "اعبر إلى مقدونية[2] وأعنا". إن المخطط الإلهي يعرف كيف يجد طريقه إلى قلبي. إن مقدونية التي هي أول أوروبا تناديني، وهذا ما كان! لقد انطلقنا من مدينة تراوس[3]

---

(1) ليسيا: كانت منطقة جيوسياسية غنية في الأناضول فيما يعرف الآن بمحافظتي أنطاليا وموغلا على الساحل الجنوبي لتركيا، على حدود البحر الأبيض المتوسط، ومقاطعة بوردور الداخلية. عرفت في التاريخ في سجلات مصر القديمة والإمبراطورية الحثية في أواخر العصر البرونزي. كان يتحدث سكانها اللغة اللويانية.

(2) مقدونية: تقع إلى شمالي بلاد اليونان. أُسست مملكة مكدونية في القرن السابع ق.م، واشتهرت في أيام فيلبس وابنه إسكندر ذي القرنين 359–323 ق.م. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

(3) تراوس: الميناء البحري الرئيسي في شمال غرب آسيا الصغرى مع ميناء مصمم هندسيًا لإيواء القوارب من الرياح الشمالية السائدة. تم إنشاء الموقع على بعد حوالي 11 ميلًا من مدينة طروادة التاريخية (إيليوم). كان المرفأ موقع انطلاق للعديد من القوارب التي تنقل الأشخاص والبضائع إلى نيابوليس (كافالا الحديثة)، لبدء رحلتهم البرية إلى روما. جعلها الإمبراطور أوغسطس مستعمرة رومانية، وكانت بمثابة نقطة إستراتيجية على طريق الاتصال الشرقي الغربي.
https://biblicaltourguide.com/troasdalyan.html

حيث التقيت لوقا الطبيب[1] فأبحرنا جميعًا عبر بحر إيجة باتجاه جزيرة ساموثراكي[2] التي فيها أعلى جبال المنطقة؛ آثوس[3]، ومنها انطلقنا إلى نيابوليس[4] ومن ثم إلى فيليبي[5]، بوابة الدخول إلى مقدونية.

---

(1) لوقا الطبيب: القديس لوقا هو ثالث الإنجيليين، وكاتب سفر أعمال الرسل، ورفيق القديس بولس فى أسفاره. ولد لوقا الانجيلي في أنطاكية السورية ومارس الطب فيها.
مطرانية الروم الملكيين الكاثوليك – الجليل. الموقع الرسمي الإعلامي.

(2) ساموثراكي: اسم يوناني معناه "مُرْتَفَع ثراكي" وهي جزيرة في بحر إيجة بالقرب من شاطئ ثراكي. وتزيد مساحتها قليلًا على ثلاثين ميلًا مربعًا, وفيها جبال يزيد أعلاها ارتفاعًا على 1500 مترًا. وكانت جزيرة ساموثراكي مشهورة بكثرة المعابد واللوحات والأبنية التذكارية الدينية المختلفة. وقد اتجهت سفينة بولس الرسول من ترواس إليها مباشرة (أعمال 16: 11) ومع أنه كان من الصعب وجود مرسى صالح للسفن إلا أن البحارة كانوا يفضلون قضاء الليل فيها على المخاطرة ليلًا في وسط البحر. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

(3) جبل آثوس: يعرف أيضًا بالجبل المقدس. يقع في شمال اليونان ويعتبر منطقة سكنية، حيث يقيم هناك رهبان من مختلف الكنائس الأرثوذكسية.

(4) نيابوليس: معناه "المدينة الجديدة" وهو مرفأ فيلبي (في شمال اليونان) وأول مكان في أوروبا وصل إليه بولس (أع 17: 11). وقد بنيت على رأس صخرين، في الخليج الستريموني، على بعد عشرة أميال من فيلبي. تسمى المدينة اليوم كافالا. دائرة المعارف المسيحية الكتابية.

(5) فيليبي: مدينة تقع في مقدونيا الشرقية، أسسها فيليب الثاني عام 356 قبل الميلاد. وفقًا لوزارة الثقافة اليونانية، فإن فيليبي هي "أهم موقع أثري في مقدونيا الشرقية".
https://biblicaltourguide.com/biblicalsitesingreece1.html

إن فيليبي هي أكبر مدن مقدونية، لو انتشرت الكلمة فيها لوصلت إلى كل المدن التي حولها وأكثر. عرفت أنها مدينة تقع تحت الرعاية الرومانية مباشرة. فيها لا يجلد أو يقبض على الفرد إلا ضمن شروط بعينها، كما يحق له أن يرفع شكواه إلى قيصر نفسه إذا ما أراد. لقد باركت روما هذه المدينة حين انتصر فيها الإمبراطور أوكتافيوس على أعدائه، فشرفها بأن جعل القوانين التي تسري في روما تسري فيها. كأنني أتحضر للقدوم إليك ياروما.. من يعرف خطط التدبير الإلهي؟ من يعرف هوى الله؟ وإنني على هواه أمشي.

* * *

قلنا لنبقَ بضعة أيام في فيليبي فنعرف أمرها وأمر قاطنيها. وكعادتنا، خرجنا في السبت نبحث عن مكان للصلاة فلم نعثر على مجمع وإنما على مصلى من دون سقف كانت بعض النسوة اليهوديات والوثنيات القلائل يصلين فيه في حلقة مفتوحة على السماء بالقرب من النهر خارج المدينة، بينما وقف أمامهم جبل بانغيون[1] المكلل بالثلج صامتًا. جلسنا بالقرب منهن وأخذنا نتجاذب حديثا بسيطًا معهن. إن الصلاة بالقرب من الأنهار مستحبة، إذ يقول مرتل مزمور السبي "على أنهار بابل جلسنا". إن الصلاة لا تستقيم من دون تطهر، ومنابع الأنهار هي المكان المناسب لذلك. على صوت الماء الجاري قربنا، قادني الحديث مع هؤلاء

(1) جبل بانغيون: هي سلسلة جبال في اليونان، على بعد حوالي 40 كم من كافالا.

النسوة الى نبي دمشق. لقد وقع كلامي وقعًا لطيفًا في قلب ليدية، المرأة المتعبدة التي كانت حاضرة بين النسوة. رأيت انتباه تقلا في عينيها وشغفًا كبيرًا على محياها. حين انتهيت من حديثي وهممنا بالنهوض اقتربت مني معرفة بنفسها. قالت لنا إنها مقيمة في مدينة فيليبي حيث تعمل في تجارة الأرجوان، وتبيعها للملوك والأغنياء، وإنها اهتدت الى الله الواحد هربًا من العبادات الوثنية الكثيرة التي تملأ المدن كلها حولنا. قالت إنها وجدت في التوحيد ضالتها.

فتحت ليدية بابًا عريضًا لي للحديث عن الكلمة ونبي دمشق بعد أن صدقت وآمنت. وهكذا تحول منزلها إلى تجمع صغير لي وللإخوة. أصبح لنا مرقدًا في هذه المدينة الرومانية الحربية. بدأت أشعر بيد التدبير الخفية تعمل، فأكملت مع الإخوة نهجنا في الخروج إلى الصلاة كل سبت. في إحدى المرات، لحقت بنا جارية كانت تعمل عرافة، وكانت تُكسب مشغليها الكثير من الأموال بسبب عرافتها. كانت المرأة تلحق بنا، وهي تنادي بصوت عال "هؤلاء الناس هم عبيد الله العلي، الذين ينادون لكم بطريق الخلاص". في الحال شعرت بقوة شريرة تأتيني منها ومن كلماتها. وعلى عكس ما كانت تقول، تملكني إحساس بأنها الشيطان المضلل الذي يريد أن يكون، عبثًا، موضع ثقة لكي يضلل أكثر فأكثر. لم أعطها أذنًا صاغية رغم ارتيابي منها، وبقيت تتفوه عاليًا بنفس الكلمات كلما رأتنا في مكان عام في المدينة حتى ضقت ذرعًا بها مرة فالتفت إليها وصرخت بقوة: "أنا آمرك باسم نبي دمشق أيتها الروح الشريرة أن تخرجي منها!" وفي الحال سكنت المرأة وهدأت. كانت

هذه الجارية واحدة من كاهنات أبوللو المخادعات اللاتي تعتقد هذه الإمبراطورية أن الوحي ينزل عليهن. لقد خرج الضلال منها في الحال أمام الجمع الذي التف حولنا. بقيت ساكنة في مكانها ترتعد بينما أوصل بعض من كان ملتفًا حولنا خبر ما حصل إلى مشغليها وهكذا جرونا أنا وسيلا عبر السوق باتجاه مكان الحاكم.

* * *

في حضرة الوالي العسكري الذي يدير شؤون هذه المستعمرة الرومانية، امتثلنا. مشهد مكرر ومألوف بالنسبة لي، إذ كم والٍ وقفت أنا وبرنابا أمامه! كم مرة وشوا بنا وسلمونا لحكام لم يقدروا أن يقرؤوا وجوهنا جيدًا! والوشاية هي نفسها في كل مرة؛ إثارة الشغب وتقديم عادات دينية غريبة على العادات الرومانية وهذا ما يخيف أيًّا كان، ذلك أن القانون الروماني لا يجيز تقديس أي إله إذا لم يقره مجلس الشيوخ في روما.

لا تخف، إننا جميعًا هنا!

وجدت نفسي وسيلا مرميان في غرفة داخلية مظلمة في سجن في فيليبي الفوقانية وسط الأكروبول بعد أن مزقوا ثيابنا وألهبوا ظهورنا بضرب لا حدود له ثم ربطوا أرجلنا بالمقطرة منعًا لهروبنا. لقد كانت أرجلنا موثوقة إلى قطع خشبية سميكة، أما أيدينا والأعناق فكانت مطوقة بسلاسل مشدودة بأوتاد إلى الحائط، وهكذا كان قعودنا وكأنه وقوف، زاد عليه ألم ظهرينا والجروح المفتوحة فيها والتي تئن كيفما تحركنا. كانت أصوات المساجين في الغرف الداخلية المحفورة في الصخر تصل خافتة، وكأنها قادمة من عمق وجع دفين. تطلعنا أنا وسيلا في بعضنا البعض ثم انطلقنا في نشيد صلاة هامسة جعلت كربنا يتنفس قليلًا. أجزم أن جدران هذا السجن لم تسمع سوى الشتائم والسباب والبكاء واللوم. لقد جعلت أناشيدنا المتصاعدة شيئًا فشيئًا المساجين يصمتون مستمعين. أكملنا إنشادنا أنا وسيلا بصوت أعلى إلى درجة أخذنا نسمع البعض من الجالسين في ظلام الغرف الصخرية يشاركوننا النشيد، وهكذا سكن الوجع قليلًا في الهجيع الثالث من الليل. وفجأة، وكأن القيامة قد قامت، إذ حدثت زلزلة عظيمة هزت جدران السجن من أركانها ففُتحت الأبواب الموصدة، وفُكت الأصفاد المقيدة عن أيدينا وأيدي السجناء، بينما كانت الأرض تنهي آخر اهتزازاتها. هل كان هذا جوابًا على صلاتنا! إن الزلازل في بحر إيجه ومقدونية ليست أمرًا نادر الحدوث، وأغلبها وقع في الليل، وها هي تحدث ثانية

وكأن التدبير الإلهي يشيل ويحط الدنيا من أجل الغرض الأخير والأكبر! لكننا لم نهرب ولم ندع أحدًا من السجناء يهرب أيضًا، وبقينا معًا في نفس المكان إلى أن أتى مدير السجن مصعوقًا بسبب رعدة الاهتزاز. حين رأى البوابة مشرعة، أدرك أن السجناء لا بد قد فروا فاستل سيفه من غمده وكان على وشك أن يقتل نفسه حتى سمع صوتي من الداخل أنادي ألا يفعل شرًا بنفسه لأننا جميعًا هنا. إن الجندي أو المسؤول الروماني إذا ما فشل في تحمل مسؤوليته ينتحر في الحال. لقد شهدت فيليبي، كأرض للمعارك، الكثير من حوادث انتحار القادة حينما وجدوا أنفسهم في مواقف غير قادرين على معالجتها والبت فيها. لقد وقع كلّ من كاسيوس[1] وبروتوس[2] وآخرين ها هنا على سيوفهم منتحرين.

---

(1) كاسيوس: كان غايوس كاسيوس لونجينوس (حوالي 86 قبل الميلاد – 3 أكتوبر 42 قبل الميلاد)، غالبًا ما يشار إليه باسم كاسيوس، سيناتورًا رومانيًا وشخصية عامة، عرف كمحرض رئيسي في مؤامرة اغتيال يوليوس قيصر في 15 مارس 44 قبل الميلاد. كاسيوس كان صهر بروتوس، والذي هو زعيم آخر للمؤامرة. قاد كاسيوس القوات مع بروتوس خلال معركة فيليبي ضد القوات المشتركة لمارك أنتوني وأوكتافيان، أنصار قيصر السابقين، لكنه انتحر بعد هزيمته على مارك أنتوني.

Ronald Syme, The Roman Revolution (Oxford University Press, 1939, reprinted 2002), p. 57.

(2) بروتوس: ماركوس جونيوس بروتوس (85 قبل الميلاد – 23 أكتوبر 42 قبل الميلاد)، غالبًا ما يشار إليه ببساطة باسم بروتوس، كان سياسيًا وخطيبًا رومانيًا وأشهر قتلة يوليوس قيصر..

أجبرت الاضطرابات الشعبية بروتوس وصهره، القاتل غايوس كاسيوس لونجينوس،

حين سمع مدير السجن صرختي، طلب مشعلًا ودلف إلى الداخل ليتأكد بنفسه، ولما رآنا وقع ساجدآ على ركبتيه أمامنا. تطلع إلي فرآني أبتسم له "لا تقلق، نحن هنا كلنا!". لا أعرف كيف رآنا أنا وسيلا وبأي عين بصيرة ونفس شفافة فهم من نحن، لكنني رأيت بأم عيني كيف تموت الوثنية كل يوم عند أول وكل محك لها، ولقد ماتت أمامنا مرات كثيرة في باحات السجون والمحاكم!

– قل لي يا سيدي ماذا أفعل حتى أخلص؟

_ آمن بالكلمة تخلص أنت وأهل بيتك.

السجان يرتعد ويريد خلاصًا أما السجين فلا سلطان لهذا العالم عليه. وقبل أن ينبلج الصباح، وفي هدأة الفجر، أمكنني أنا وسيلا تعميد كل العائلة بمياه العين التي كانت كائنة في باحة السجن. خلال وقت قصير، وبعد العماد، كانت زوجة مدير السجن تعد لنا طعاما في مسكنهما بينما كان هو يرطب بنفسه جراحاتنا وينظفها بقماش مغمس بالكحول. وأخيرًا، التقينا جميعًا على أول مائدة محبة في أوروبا.

على مغادرة روما في أبريل سنة 44 ق.م. بعد عملية إعادة تنظيمات سياسية معقدة، عين أوكتافيان – ابن قيصر بالتبني – نفسه قنصلًا، وأصدر مع زميله قانونًا بأثر رجعي يقتل بروتوس والمتآمرين الآخرين. أدى ذلك إلى حرب أهلية ثانية، حيث حارب مارك أنتوني وأوكتافيان المحررين بقيادة بروتوس وكاسيوس. هزم القيصريون بشكل حاسم جيوش بروتوس وكاسيوس التي فاق عددها عددهم في المعركتين في فيليبي في 42 أكتوبر. بعد الهزيمة، انتحر بروتوس.

Community and Communication: Oratory and Politics in Republican Rome. Oxford: Oxford University Press. p. 317.

لقد حركت هذه الزلزلة القوية أيضًا ضمائر حكام فيليبي فهم متجاوزن للقانون الروماني في اعتقالنا، وهكذا أوعزوا لمدير السجن الذي هرول ليخبرنا بإطلاق سراحنا:

– ضربونا جهرًا غير مقضىً علينا، ونحن رجلان رومانيان، ثم ألقونا في السجن، والآن يطردوننا سرًا! كلّا! بل فليأتوا بأنفسهم ويخرجونا!

– ولكن يا سيدي..!

– اذهب أيها الأخ الطيب، وقل لهم إنهم خالفوا القانون الروماني ثلاثة؛ أولًا، الضرب بذاته، ثانيًا، الضرب جهارًا، وأخيرًا السجن من دون محاكمة!

عرف الولاة بما طلبنا، فأتوا مع رجال وجند كثيرين يترجون خروجنا من السجن قائلين: إنهم لم يعرفوا أننا رومانيان. لست من المنتقمين، حاشى! لكن إذا كان التدبير يقود خطواتي، فإني لن أقبل أن تقع هذه الخطوات في أي خزي، وهكذا تركنا السجن بشرفنا من دون عجالة.

عدنا إلى بيت ليدية الذي اجتمعت فيه أنا وسيلا بباقي الإخوة، فوجدنا عزاء كبيرًا لنا. أنا لست مستعجلًا الخروج من المدينة فلقد منحني التدبير الوقت الكافي لكي أسوم[1] بعض الكهنة والمتقدمين، وأعطيهم الإرشادات من أجل إدارة كنيسة فيليبي، وهذا ما حصل.

* * *

(1) يسوم، سيامة وهي رسم أسقف.

ها إن الطريق إلى أوروبا يلوح مشرعًا على مصراعيه أمامنا. إن غايتنا سالونيكي[1] ومنها إلى أثينا. وهكذا، انطلقنا في دربنا فعبرنا أمفيبوليس[2] وأبولونية[3] مجتازين طريق أغناطيا الحربية المعبدة بالغرانيت والتي مشينا فيها يومين، وفي كل خطوة كانت تئن جراح السياط التي داوتها ليدية بشاش محبتها. كانت الثلوج

---

(1) سالونيكي: تأسست المدينة عام 315 قبل الميلاد على يد كاساندر المقدوني، الذي أطلق عليها اسم زوجته ثيسالونيكي، ابنة فيليب الثاني المقدوني وأخت الإسكندر الأكبر. كانت ثيسالونيكي مدينة مهمة في العصر الروماني، وكانت ثاني أكبر وأغنى مدينة في الإمبراطورية البيزنطية. تم غزوها من قبل العثمانيين في عام 1430 وظلت ميناءً بحريًا مهمًا ومدينة متعددة الأعراق خلال ما يقرب من خمسة قرون من الحكم التركي. انتقلت من الإمبراطورية العثمانية إلى مملكة اليونان في 8 نوفمبر 1912. تعرض ثيسالونيكي العمارة البيزنطية، بما في ذلك العديد من الآثار الباليوكريستية والبيزنطية، وموقع تراث عالمي، بالإضافة إلى العديد من الهياكل الرومانية والعثمانية واليهودية السفاردية. تعد جامعة أرسطو، الجامعة الرئيسية في المدينة، الأكبر في اليونان والبلقان.
"European Cities and Regions of the Future 201415/" (PDF).
17 February 2014

(2) أمفيبوليس: اسم يوناني معناه "حول المدينة" لأنها كانت مدينة تقع بالقرب من نهر ستريمون ومحاطة تقريبًا بانحناء النهر. كانت المدينة تقع على الطريق المعروف بأغناطيا، على مسافة 33 ميلا جنوب غربي مدينة فيليبي، والذي مر فيه الرسول بولس وسيلا عندما سافرا من فيليبي إلى تسالونيكي. في موقع المدينة اليوم يوجد قرية تسمى نيوخوريو. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

(3) أبولونية: اسم يوناني نسبة إلى أبولو. وهي بلدة في مكدونية كانت واقعة على طريق أغناطية وهو أحد الطرق الرومانية الحربية والتجارية. يظن أنها أسست في وقت سابق للقرن الرابع قبل الميلاد. وقد اجتاز فيها بولس وسيلا في طريقهما من فيلبي إلى تسالونيكي (أعمال 17: 1) دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

التي تكلل جبل بانغيون ترسل نسائمها الرطبة فتلف وجوهنا خلال المسير فنهدأ. بقينا على هذا المنوال حتى بان خليج مدينة سالونيكي في الأفق بمينائها على بحر إيجه. ونحن نتطلع من التلة التي وصلنا إليها إلى هذه الحاضرة الجميلة، قال لي ثيموثاوس إن طريق أغناطيا الحربي الذي عبرناه إنما يصل هذه المدينة بروما نفسها، وكذلك بيزنطة وآسيا، ولهذا فإن أهميتها تأتي من تدفق البشر والبضائع والأفكار الحرة إليها، وإنه إذا كانت فيليبي هي مدينة العسكر الروماني فإن في سالونيكي كل غي اليونانيين وفكرهم ماثلًا في كل شيء؛ الهياكل التي تتعبد لآلهة بعدد شعر الرأس، أقواس النصر، الحمامات الساخنة وحتى المسارح والملاعب الرياضية. إن هذا الغي ماثلٌ أيضًا في سمعتها الأخلاقية السيئة، في كسل أهلها الذين يجوبون الشوارع وأروقة سباق الخيل، في سهراتهم الخليعة، وكذلك في خيانة الزوجات والأزواج!

حالما وصلنا المدينة عبرنا شوارع التجار بأنواعهم ومن بينها حي الجلود وصناعة الخيام، فوجدناه مليئًا بتجار من كل الأصقاع، سوريين ورومان ومصريين ويهود. كانت غايتنا هي الحي اليهودي الذي ما إن سألنا عنه حتى هرع شاب في الحال لكي يدلنا عليه.. لقد كنت أحمل بيدي توصية من أهل فيليبي إلى مواطنهم ياسون، الذي يقطن في سالونيكي. ياسون كان ذا قلب طيب يملك مصنعًا صغيرًا للحياكة. لقد استقبلنا الرجل في بيته، وقدم لنا طعامًا وعملًا وهكذا وجدت نفسي على نول الحياكة في اليوم الثاني، عاملًا لا

أعول من أجل معيشتي على أحد. أما ثيموثاوس وسيلا فقد أمن لهم ياسون عملًا في متاجره الأخرى. فتنفسنا الصعداء.

في السبت، انطلقنا إلى المجمع الذي كان مقرًا لكل يهود مقدونية. لقد استقبلونا بترحاب بعد أن عرفوا أننا من دارسي "الكتاب" في أورشليم ثم ما لبثوا أن طلبوا منا أن نقول كلمة للناس الذين ملؤوا المكان فنثبتهم على الدين.

اعتليت المنبر، ورفعت يدي مسلمًا على الجمع ثم انطلقت مباشرة أتحدث عن نبوءة أشعيا الوعدية والتي تتحدث عن رجل الأوجاع الذي يخلص البشرية كلها. إنني أدير رؤوسهم باتجاه هذا البعد الأعمق للكتاب. لماذا الوقوف إلى الأبد عند نواهي وتحذيرات الناموس إذا لم تفضِ إلى ما هو أجدى وأعمق! لماذا الأضاحي التي تقدم إلى وثن لا يحرك ساكنًا! ألا يحن القلب إلى الحقيقة ولو لمرة واحدة! لقد علت نبرتي بالهجوم، وانفعلت حركة يدي قليلًا وأنا أشرح بينما كان الكل يحدق بي مصغيًا.

بقيت على هذا المنوال ثلاثة سبوت متوالية إلى أن قررت أن أكتفي بنشر كلمتي في بيت ياسون، وكذلك البيوت الخاصة ممن تعرفت عليهم في المجمع، وكذلك بيوت غرف العبيد وبيوت الأرستقراطيين. قلت في نفسي ليكن العمل فرديًا أيضًا ؛ من عقل إلى عقل، ومن روح إلى روح، ومن بيت إلى بيت. إن رغبتي هي أن أنتبه وأصغي لكل فرد على حدة، أن أجعل من رابطة الصداقة والثقة الحقيقية طريقًا إلى القناعة والقبول الراضي، وهكذا امتلأت الدنيا حولي بالشاكين والمعذبين والمهمومين

والذين لا يعرفون أي طريق يسلكون وسط زحام التماثيل والآلهة وحكاياتها واحتفالاتها التي لا تنتهي. كنت أصغي بانتباه لكل منهم، وكأنه الوحيد في العالم أمامي، أتطلع إليه، وأضع يدي على كتفه، وأناوله الكلمة. إن طريق الله ليس سهلًا، ولا أتوقع أن يغدو كذلك أبدًا، ذلك إنني كلما أمعنت في الحديث عن نبي دمشق كان السؤال الكبير المكرر يضيء فوق الرؤوس: هل هو أقوى من الإمبراطور، أعلى رتبه منه؟ هل سيأتي ليحكم؟ هل سيكون ملكًا؟ كيف يقبل قيصر بذلك؟ هذا مخيف!!... يا لهذا السلاح الفتاك بيد اليهود لكي يحاربوني به في كل مرة. حتى في بيت الفلسفة ها هنا، هناك من لا يستطيع أن يَعبُر من المادي إلى الروحي، ويفهم!

لقد تمكن اليهود من حشد بعض الأشرار من الشوارع والأسواق فخلقوا فوضى في المدينة، ثم أخذوا ينادون في الحواري والأزقة: مؤامرة.. مؤامرة!، الكلمة التي تقيم روما، ولا تقعدها.

لقد شعر الإخوة بالخطر فأخذوني أنا وسيلا وثيموثاوس وأخفونا في مكان بعيد عن الأعين، لكن اليهود الغاضبين دخلوا إلى بيت ياسون وأخذوه هو وآخرين كرهائن، ثم اقتادوهم إلى حاكم المدينة مقدمين شكواهم إليه: الخيانة العظمى!

لقد عرف الحاكم الروماني بلمح البصر ما يقع تحت هذه الغيرة الوطنية لليهود، فاكتفى بأخذ مبلغ ماليّ من ياسون ثم تعهدٍ برحيلنا عن المدينة على وجه السرعة.

تركنا سالونيكي تحت جنح الظلام متجنبين العودة عن طريق

إغناطيا الحربي، سالكين طريقًا فرعية. بعد مسيرة اثنتي عشرة ساعة وصلنا إلى بيريا[1] حيث مكثنا فيها لبعض الوقت. هناك، في المجمع اليهودي الصغير، رفعت يدي أمام الحشد القليل وأنا منهك متعب، مبتدأً بالسلام ومنطلقًا في حديثي من الكتاب. لقد قَبل الكثيرون الكلمة لكن البعض كما في كل مكان ذهبنا إليه حمل علينا حقدًا وسوء نية. قررت أن أنطلق بحرًا تاركًا مقدونية بعد أن قدم لي الإخوة معاونًا لي على الطريق اسمه سوبارتو، بينما تركت قطعتي قلبي في بيريا قبل الانطلاق، سيلا وثيموثاوس، لحاجة الكنيسة الفتية في تلك المدينة إليهما. لقد رجوت الإخوة أن يستعجلا في إرسالهما إلي حالما ينجزا عملهما لأنني بدأت أشعر بثقل المرض علي.

على مقربة من شاطئ ثيساليا[2] الطويل سار المركب بنا أربعة أيام. إنني بحاجة للتطلع فوق صفحة الماء لتهدأ نفسي، وتستكين، ويرتاح مني الألم الذي ينبض أثر السياط والجروح. إن جبل الأولمب لم يبرح نظري. كأني لمحت عليه إله البحر وآلهة الحكمة

---

(1) بيريا: مدينة يونانية قديمة تقع في مقدونية.

(2) ثيساليا: كانت إحدى المناطق التقليدية في اليونان القديمة. خلال الفترة الميسينية، عُرفت ثيساليا باسم إيوليا، وهو الاسم الذي استمر استخدامه لإحدى القبائل الرئيسية في اليونان، وهي الإيولية، ولهجاتهم اليونانية، الأيولية. كانت ثيساليا القديمة منطقة واسعة تمتد من جبل أوليمبوس إلى الشمال إلى وادي سبيركيوس إلى الجنوب. ثيساليا منطقة متنوعة جغرافيًا، تتكون من سهول مركزية واسعة تحيط بها الجبال. ويكيبديا.

يلقيان التحية على هذا الغريب الذي هو أنا، أعزلَ أدخل إلى ميناء بيرايوس الذي يفيض بالسفن ذات الصواري العالية إلا من الكلمة التي تنبض في أحشائي نبضًا قويًا لا يتناسب مع وهن جسدي وتعبه. لكن قوس أثينا ورأس الحربة الذهبية اللذين ظهرا أمامي من البعيد شدا من عضدي فتماسكت بينما كان الصبي المعلق أعلى صارية السفينة يصرخ: أثينا.. أثينا!

وضع سوبارتو معاوني يده على كتفي وقال:

– منذ أكثر من مئة عام دارت معركة كبرى هنا بين الجمهورية الرومانية ومدينة كورنث الإغريقية وحلفائها انتهت بتدمير كامل للمدن، ومن يومها وروما تسود هنا وتحكم. لقد أشعلوا النار فيها وقتلوا رجالها واستعبدوا نساءها والأطفال. بعد ذلك اليوم المشؤوم، خضعت كل المنطقة لروما، وما زالت. لكن الإغريقي لم يتخل عن هويته إذ سوف تعثر هنا وفي أثينا على ما لن تراه في روما إذا قدر لك وسافرت إليها! صار الجسد منها رمادًا، وظلت باقية. إن مجد أثينا وكورنثيا الناجيتين من ذلك الدمار لا يمكن أن يخفي أثره أي رماد.

لم تكن أثينا في أوج تاريخها عندما لامست قدماي تربتها لكن سحرها أمر لا لبس فيه. لقد شعرت بنفسي وحيدًا فيها من دون سيلا وثيموثاوس، فقررت استجلاء المدينة، فأعرف روحها وروح قاطنيها. إن وثنيتها أمر طاغ، إذ في كل زاوية كانت التماثيل تشرئب، وكأنها راسخة إلى الأبد فوق منصاتها يحميها من فوق

صخرته العالية، معبد الأكروبوليس[1] الضخم حيث هيكل أثينا[2] وكذلك معبد بارثينيون[3]! وقفت طويلاً أتأمل، وأفكر ناظرًا إلى المدينة الباذخة من فوق! كل شيء مصنوع بجمال وبخفة يد ماهرة تقدس اللون والحركة والتفاصيل الصغيرة فتعمل ما يبهر عين المتفرج، وأنا المدهوش كيف عبر هؤلاء إلى آلهتهم على

---

(1) معبد الأكروبوليس: يقع على هضبة صخرية عالية وسط أثينا. يأتي مصطلح "أكرو" من صفة (العلو والارتفاع) واسم "بوليس" من (مدينة أو بلدة)، وهذا يعني أن "أكروبوليس" معناها "المدينة المرتفعة". وهو معبد يوناني قديم يقع في العاصمة اليونانية أثينا على قمة تل ويعد من أشهر المعابد القديمة اليونانية وكلمة أكروبوليس. ويكيبديا.

(2) هيكل أثينا: وهو المعبد الأصغر في الأكروبوليس، وهو مكرس للآلهة أثينا ونايكي. تم بناء المعبد حوالي 420 قبل الميلاد، وهو أقدم معبد أيوني بالكامل في الأكروبوليس. يقع في مكان عالٍ شديد الانحدار في الركن الجنوبي الغربي من الأكروبوليس.

Connelly, Joan Breton, Portrait of a priestess: women and ritual in ancient Greece, Princeton University Press, Princeton, NJ, 2007

(3) بارثنون: هو معبد سابق في الأكروبوليس الأثيني باليونان، وقد تم تكريسه للإلهة أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد. تعتبر منحوتاتها الزخرفية بعض النقاط البارزة في الفن اليوناني، وهي رمز دائم لليونان القديمة والديمقراطية والحضارة الغربية. تم بناء البارثينون كنوع من الشكر على الانتصار اليوناني على الغزاة الفرس خلال الحروب اليونانية الفارسية. مثل معظم المعابد اليونانية، كان البارثينون بمثابة خزينة المدينة.

The Parthenon: From Antiquity to the Present. Cambridge University Press. p. 67.

جسر الجمال البحت. إن عالمي لهو بعيد عن هذا الدلع الغريب في مقاربة الحياة، كأنني سلكت أكثر الطرق وعورة إلى الله! كأنني أردت أن أعثر عليه بين جدران رأسي فقط وفوق سحاب مخيلتي وشغفي! كيف للكلمة أن تتبدى، وتُفهم، وتُشرح، وتُنقل فوق هذه التماثيل الرخامية البديعة؟ كيف لها أن تُنطقها! كيف عَبَرَ هؤلاء إلى اليقين عبر المرمر المصقول، وأنا لم أستطع أن أخرج من دفء الخيش وعباءات وبر الماعز! أم تراهم لم يعبروا بالمطلق! وما قيمة كل هذا أمام الانقلاب الذي تحدثه الكلمة في القلوب التي تتوق للحقيقة! ما قيمته حتى ولو بني على أعلى جبل في هذه المعمورة! حتى المعبد الذي بني لأغسطس قيصر، وهو موجود في كل مدينة، ليس سوى شكر العبد لسيده؛ التأليه الذي يبقي روح الإنسان في العبودية، ويحيله إلى تمثال من رخام. أما الكلمة، فهي ليست للتأليه، وإنما لإحداث الانقلاب والتغيير. إنها الثورة التي أريدها أن تصل حتى قلب روما نفسها، روما الوثنية.

* * *

لا أعرف كم معبدًا وهيكلًا عبرت، وأنا أجوب المدينة أستكشفها. إنها غابة من التماثيل والمعابد. يا لعيني وعقلي التوحيديين كيف سيحتملان هذا التعدد والغزارة التي لا حدود لها! تُرى ألم يمت أحد في هذه المدينة الجميلة فداءً لفكرته، لشغفه! إن مروري بالقرب من سجن سقراط الذي قضى بالسم على يده منذ بضعة مئات من السنين إنما صحّى الكثير من الأسئلة لدي. لقد حكموا عليه بالموت مدعين إلحاده وإفساده للشباب. إن أثينا الديمقراطية

ببعض شعرائها وممثليها حكمت عليه بالموت. أرادو إسكاته كما يريد اليهود قبر الكلمة في داخلي وإسكاتي. منذ الخليقة يستفز الحق والصواب والخير البعض إذ يفضح النقيض الذي ينطوون عليه. قتلوا سقراط، الأكثر حكمة وعلمًا، وبقي العاهر والمجرم والفاسد طليقًا! وقف يدافع عن نفسه مختمرًا بهذه الطمأنينة المقدسة التي افتقدها قاتلوه والقضاة. لقد ورد في نص الدعوى عليه "إن سقراط مجرم بتقصيه سرائر الأرض والسماء عن فضول، وبإبداله الحق بالباطل، وبتعليمه هذه الأمور للآخرين وجحوده آلهة المدينة واعترافه بآلهة أخرى جديدة". إن الظلم لاحد له وكذلك الغباء. حاشى للكلمة التي أريدها أن تصل لبني الإنسان أن تحتكر الحقيقة. لم يفعل نبي دمشق، وكذلك لم يفعلها سقراط، ولن أفعلها أنا. إن الإله الذي يبُعد عن الحقيقة، الإله الذي يطلب من الإنسان أن يموت في عقله وقلبه ويُحيي فيه بدلًا منهما تماثيله إنما هو إله قمعي ظالم.

أصبحت محاكمة سقراط التي أحفظها عن ظهر قلب وخطابه أمام جلاديه، رجال أثينا، ملئ الفضاء حولي. هو أيضًا دافع عن بقاء النفس وجدوى الاهتمام بها عن الجسد الزائل. إنه بطل الكلمة الذي أشفق على ظالميه بل وسخر منهم وشاء الموت. يا لهذا الصراع الأبدي بين الكون المادي الصلب والروح التي تتوق للحرية والحقيقة!

ووجدت نفسي فاتحًا ذراعي مرددًا بصوت عال قوي "يا سقراط، يا نبي أثينا، يا رفيقي وأخي.. يا أيها الفاتح الأول للكلمة

كما أرادها نبي دمشق، وكما أنا أبشر بها، وكما هي صلتنا مع من في الأعالي، إني على هذا الطريق أمشي. قتلوا نبي دمشق وقتلوك والله وحده يعلم كيف سيكون موتي الذي لا سلطان له علي!! ولكن، مااااذا لو كنت على خطأ؟ ماذا لو كانت الكلمة التي أبشر بها هي من اختراعي ومن محض خيالي؟ ماذا لو كان نبي دمشق فكرة اخترعتها بقوة الفلسفة والاستقراء العقلي؟ أنا لم أره مرة واحد ولكني أجزم بأنني عارف بنواياه، ولكن ماذا لو لم تكن هذه نواياه!! يا الله، إني أشعر بالهلع لمجرد مرور هذه الأفكار في عقلي المُتعب الذي لا يهدأ، ولا يرتاح. إنني منساق ومندفع بقوة في وجه قدري بينما أراكم الأعداء يمينًا وشمالًا، وكذلك أراكم المريدين الذين يجدون معنًى فيما أقول. إني أقف بين هذه التماثيل الكثيرة بينما يملؤني شك أطل برأسه في داخلي للتو. كل هذه التماثيل الراضية فوق منصاتها تتطلع إليّ وتحاكمني. أصبحت فكرة أنني خلقت نبي دمشق من عمق روحي ذات نبرة أقوى في داخلي. أنا لست ضعيفًا، ولكن عقلي هو الوحيد الذي أخاف منه، وها هو يلقي بسلطانه الحاد علي فيربكني! تُرى هل هذه حربي القادمة؟ هل هي حربي الوحيدة؟ لماذا لا يموت إحساسي بأهميتي والذي يومئ برأسه أمامي من وقت لآخر؟ هل أنا وغد ذو ثقافة عالية أم مضلل أتى من عمق تحجر الناموس! من أنا؟ إن عبادة الملوك والقادة تملأ هذا العالم من أقصاه إلى أقصاه. أنا على عكسهم، لا أدعي أنني متوفر للعبادة. لم أقل هذا ولن أقوله. إنني أفتح ذراعي للأمم لكي تؤمن بالكلمة، ولا أطلب من أحد أن ينصب لي تمثالًا!

إنني أعترف بأنني ذو طباع صعبة وقلب حديدي تجاه الشغف، وأعرف أن برنابا لربما ضاق ذرعًا بالكثير من الأفكار التي أقدمها. نعم، لربما هذا ما حصل، ولكن ألم أشرح له أن الأفكار التي لا تتطور تموت في مكانها! ألم أشرح له أن الإضافات لا تعني التغيير الجذري، وإنما من أجل أن تبقى الفكرة الأصلية فلا تموت! ألم أطلب أن يدون كل شيء، وذلك لكي لا يضيع الجهد، جهدي وجهد الجميع! أنا لست حالمًا ولا شاعرًا، ولا أفهم كيف عبر اليونانيون إلى آلهتهم على مركب الجمال الصلصالي الفائق هذا، وكذلك لا أفهم كيف لرجل بثقل نبي دمشق أن يرحل من دون أن يترك كلمة واحدة مدونة بقلمه! هل تكفي الكلمة المنقولة شفاها؟ هل تكفي الثقة بذاكرة بعض التلاميذ ومن عاصره؟ كل ما فعلته هو أنني حولت الرمز، رمز الفكرة الأولى والكبرى التي قال بها إلى حقيقة وطورتها. إنني حصنتها بملح التدوين والمثابرة على النهج! هل أنا ناكر للجميل أو كاذب! أنا أيضًا مصلوب مثله، بل إنني أُصلب كل يوم مع جروح جديدة تتفتح في جسدي!"

إن التفكير في سقراط هز وجداني بقوة. في هذا المكان البعيد، أشعر بالعري مثل تمثال لم ينتهوا من نحته. فإذا قبل هو أن يشرب السم من أجل قناعاته، فأنا لن أفعل إذ إن قتلي لنفسي لن يخدم الهدف الكبير. لو لم يسمح نبي دمشق لقتلته بإنهاء حياته، وهو كان قادرًا برأيي، لربما تغير كل شيء الآن، لكنه لم يفعل!

* * *

أغرتني أثينا الوثنية بالبقاء طويلًا فيها. إن اليهود الذين التقيتهم في السبت الأول في المجمع، وأولئك الذين كنت أصادفهم في السوق كانوا قلائل في هذه المدينة بل حتى إنهم تشربوا الكثير من أفكارها وعاداتها. لقد رأيت هذا في عيونهم والأسئلة حين كنت أحدثهم عن الكلمة وعن نبي دمشق. لم يبقَ أمامي سوى الوثنيين والفلاسفة لكي أعرف عنهم وعن أفكارهم.

أخذت أجوب المدينة باحثًا عن نقطة ما أنطلق منها إلى أن وقعت عيناي في زاوية من الطريق على نصب كتب أسفله "لإله مجهول"! كل هذا الجيش من الآلهة في كل مكان لم يكفِ الباحثين عن الحقيقة، فنصبوا واحدًا لإله لربما قد سقط سهوًا أو غيبه الجهل فيه! هل هذا ما اعتقدوه! إن الرواقيين يصرون على أن كل هذه الآلهة ما هي إلا تبديات ورموز لإله عظيم لا اسم له! إذًا، هم يعرفون أن هناك الأعظم! وخفق قلبي بشدة إثر هذه الأفكار التي راودتني. إن هؤلاء هم الأقرب إلى الكلمة التي أقول فيها، إنهم حتما الأقرب. لقد تنفست الصعداء إذ أصبح لي يقين ومعرفة من أين يجب علي أن أبدأ. لقد طوى الطير اليوناني جناحيه منذ أن وطئ أول جندي روماني أرضهم وإنني لقادر على أن أجعله يحلق من جديد. سأواجه الرواقيين والأبيقوريين وفلسفتهم التي يعتدون بها، سأواجههم بقوتي النبوية. أنا أيضًا أحمل عصًا مثلهم وألبس مئزرًا فيه الكثير من الرقع. أنا أيضًا أحمل في عقلي فلسفة تريد أن تَعرف وتَكشف عن الإله المجهول وتفتح كل باب موارب صدئ في هذه النفس اليونانية التي تتوق إلى الحقيقة، مثلي! وبدأت

أذهب إلى السوق، المكان المثالي لتجمع كل هؤلاء وأخذت أجادل، وأعلن أفكاري، وأقدم البراهين أمام سخريتهم واستغرابهم وأسئلتهم المتعالية التي كانوا يطرحونها بكثير من العجرفة واليقين الذي لا يقبل المناقشة. حتى لهجتي الطرسوسية اليونانية كانت "تسليهم" وتدفعهم لعدم أخذي على محمل الجد لدرجة تجرأ أحدهم وأطلق علي لقب "المهذار" الذي يبشر بـ"دين جديد"!

لقد عرفوا أن يصطادوا من فمي أكثر كلمتين عصيتين على الفلسفة ؛ القيامة والنبوة. أين هي دمشق من أثينا، سرير الأساطير والحكمة الأبدية! إذًا، هذا ما يظنونه! أتقف المعرفة عند أمة أو أحد! أيقف الوحي، هذا الدفق الذي لا سلطان لأحد عليه! أيقف الاجتهاد والعقل والتفكير والبحث في توقيت معين أو لحظة مقررة؟!

حين طال الجدل والأخذ والرد بيني وبينهم علا صوت أحدهم يطلب مني أن أَمْثُل أمام أعلى مجلس في أثينا، "آريوس باغوس"، الذي يبت في الأخلاق والعبادة والثقافة، ويتألف من شيوخ أجلاء ومنظرين وفلاسفة. إن صخرة آريوس باغوس المرتفعة تشبه منبرًا عاليًا جدًا مفتوحًا على الرياح بجهاتها الأربعة وقف عليها منذ أكثر من ثلاثمئة عام سقراط حين اتهموه أيضًا بأنه يدعو إلى "شياطين جديدة" لم تسمع بها أثينا من قبل. الصوت العظيم الذي كان في داخله يوحي له بكل التعاليم هو الصوت نفسه الذي حدثني في طريقي إلى دمشق، وسقطت من حينها صريع الشغف والكلمة، هو الصوت نفسه الذي حوكم بسببه سقراط وأحاكم بسببه في كل مرة أتحدث فيها عن نبي دمشق إلى أحد ما! لا تهب على آريوس

باغوس رياح الناموس ولا من أية جهة، كما أنها ليست وسطًا يهوديًا أدخله، وأقف على منبره رافعًا يدي ومتحدثًا بتدفق عن نبوءة أشعيا. لا، لا الناموس ولا الوعود ولا حتى لنبي يمكنه إذا نطق أن تهدأ المسكونة، ويستقر قلب الإنسان بالنسبة للأثيني الذي أقف أمامه الآن، كل هذا لا يدخل في حسبانه. مع ذلك، فإن الرواقيين هم الأقرب لفكري وذلك لأنهم وضعوا الأخلاق فوق مرتبة فلسفتها. إني أحفظ نشيد زيوس عن ظهر قلب، أحفظه، وأردده، وكأنني أردد صلاتي الخاصة، "السلام عليك أيها الكثير الأسماء والأشكال، أيها الأزلي الكلي القدرة، يامن ابتدأت بك المسكونة، أيها المدبر الكل بنواميسك. كل الكائنات الخيرة والشريرة أنت وحدتها بكلمتك. أنت أيها الإله الكلي غير المنظور..".

سأبدأ من هنا، من هذا الاعتراف اليوناني بالتوحيد، من هذه الأرضية المشتركة، من تلك الرؤية للعلة الأولى والوحيدة لكل شيء والتي غدت منظورة بقوة التبصر. لو كان كلايانتيس[1]، كاتب هذا النشيد حاضرًا أمامي لفهم كل كلمة أتفوه بها، لو كان أفلاطون

---

(1) كلايانتيس: من مدينة آثوس. كان كان فيلسوفًا وملاكمًا يونانيًا رواقيًا وكان خليفة للفيلسوف زينو حيث كان الرئيس الثاني للمدرسة الرواقية في أثينا. كان في الأصل ملاكمًا، وجاء إلى أثينا حيث درس الفلسفة، واستمع إلى محاضرات زينو. كان يدعم نفسه من خلال العمل كناقل مياه في الليل. بعد وفاة زينو عام 262 قبل الميلاد، أصبح رئيسًا للمدرسة، وهو المنصب الذي شغله لمدة 32 عامًا. نهج كلاينتس في الحفاظ على مذاهب زينو وتطويرها، كما ابتكر أفكارًا جديدة في الفيزياء الرواقية، وطور الرواقية وفقًا لمبادئ المادية ووحدة الوجود. من بين الكتابات الخاصة بكلايانتس التي وصلت إلينا هناك ترنيمة لزيوس.

Davidson, William Leslie (1907), The Stoic Creed, Clark

حاضرًا لفهم قصدي ومرماي. إنني هنا لأكمل ما بدؤوه. بين يدي المشعل الذي يقود إلى الإله المجهول بذاته. أما الأبيقوريون والذين يعتقدون أن العالم كله محض صدفه وأن اللذة هي السقف الأقصى للسعادة فسوف يشربون نخبًا جديدًا من الحقيقة.

على صخرة آريوس باغوس

حين افتتح المجلس بحضوره، طلب مني رئيسه بلباقة أن أتفضل في الكلام، وأفصح عما لدي من أفكار. ما إن صعدت إلى المنبر العالي حتى رأيت في الحال لمحة السخرية الطفيفة تعلو أغلب الوجوه. إنني أعرف هذه النظرات حين تغضب، أو تثور، أو تسخر، أعرفها، وأعرف مصدرها، لكني تماسكت وشرعت صدري لريح هبت فجأة، وانطلقت في حديثي:

– أيها الرجال الأثينيون، أراكم من أكثر الناس عبادة، وإنني أفهم اتهامكم لي بالدعوة إلى شياطين جديدة. لكن دعوني أقول لكم إنه بالتجوال في مدينتكم والنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضًا مذبحًا كتب عليه: لإله مجهول! وهذا ما أنا أنادي لكم به. إنه ليس مجهولًا طالما أنه مبرهن على وجوده بكل ما ترونه حولكم. إن عيونكم تتطلع إلى آلهة الأولمب، لكن من لديه رجال عظماء مثل أفلاطون وسقراط يعرف تمامًا أن هذا الإله المجهول إنما يتجاوز كل تلك الآلهة التي تحيطونها بالخدم والأضاحي والذبائح والخمور. إن هذا الإله ليس بحاجة لمن يخدمه؛ وإنما هو الذي يقدم لكم كل شيء! تطلعوا إلى ذواتكم، إن مواهبكم كلها منه، تطلعوا إلى الدنيا والطبيعة حولكم تروه منظورًا، وليس مجهولًا، تروه معلنًا وليس سريًا! إنه حتى يكشف صفاته كلها أمامكم فيكون قدوة ليس لكم فقط وإنما لكل روح عائشة فوق هذه الأرض. إن غريزتكم دلتكم عليه. شعراؤكم، فلاسفتكم، أتقياؤكم بحثوا عنه وطلبوه. إنني ألمس بكلتا يدي هاتين حنينكم إليه. لكن لا تخافوا ولا يعتريكم قلق ولا حتى أنتم بحاجة للمجاهدة عن طريق الفلسفة بالبحث عنه. لطالما

أخطأت الفلسفة الطريق إليه؛ لأنه ليس في عقلكم وإنما هو يحيا، ويتحرك، ويوجد في تلك الروح التي تتحدث إليكم الآن وكذلك في أرواحكم. الفلسفة تريد أن تماحك، وهي في ذلك تضلل. هناك أمور لا نصلها عن طريق الفلسفة الوعر؛ وإنما بالتبصر الداخلي، بالإحساس اللمحوي، بالإدراك الفوري من دون مقدمات أو براهين!

تطلعت إلى الوجوه فلمحت انتباهًا جديًا فيما أقول فقررت الدخول في جوهر خطابي على الفور:

– شتان بين اللاهوت وبين الحجر المنقوش أو المعدن الثمين! اللاهوت ليس صنمًا لآلهة تقدم إليها القرابين أو الهدايا! شتان بين الاثنين! هناك العدل الذي يتطلع هذا الإله لكي يحكم به المسكونة، وهو ليس قادرًا على ذلك إلا من خلال إنسان بعينه، إنسان هو بذاته فحوى المعنى والرمز، إنسان لديه سلطان على كل شيء ليس بدافع الجبروت؛ وإنما بكل بساطة لكونه العلة الأولى ومصدرًا لكل شيء. إذا لم يكن هذا الإله منظورًا ومعلومًا، ويملك سيرة حياة ذات مدلولات كبيرة إذا كيف تحل الفائدة من وجوده! ما معنى وجوده أصلًا! إنه هناك حاضرٌ من دون حجاب أو واسطة أو أضاحي ولا حتى نذور دموية أو احتفالات! إن العقل يتطور في اكتشافه للخالق، وهذه التماثيل والنصب في كل مكان ليست سوى طور طفولي في عملية الاكتشاف!

أيها الرجال الأثينيون، إن كلامي إليكم هو عين الحقيقة، وأتمنى أن تقتنع قلوبكم به وليس عقولكم فقط.

تركت المنبر بينما كان صمت ثقيل يسود فوق رؤوس الحاضرين. لقد اصطادوا من فمي هذا الفائق للطبيعة الذي أتحدث عنه، غير السري أو المجهول. وفجأة، تنامى هرج بسيط سببه

سخرية البعض مما قلته واتهامي بالشطح والشرود عن المنطقي!

لقد عدت أدراجي متفكرًا بما حصل، معيدًا في عقلي كلماتي وكذلك ردود الفعل عليها. على الأقل، لم أطرد من هذه المدينة، ولم أُجلب أمام حاكمها، أو أضرب في سوقها. على الأقل سمعوني حتى لو لم يوافقوا على كلامي. وبينما أنا غارق في أفكاري إذ أشعر بخطوات متسارعة خلفي، فالتفت إلى الوراء لأعثر على رجل في مثل سني:

– لا تخف! أنا ديونيسيوس، عضو في آريوس باغوس.

ثم ظهرت امرأة، كانت تقف خلفه، واقتربت مني برصانة معرفة عن نفسها بابتسامة سمحة:

– وأنا هاماريس.

تطلعت فوجدت أن هناك آخرين حولهما، كأنهم أتوا معهم ينظرون إلي باحترام وبابتسامة خجولة. خفق قلبي بشدة. ابتسمت لهم وما هي إلا لحظات حتى أصبحنا حلقة متماسكة كوناها في المكان الذي التقينا فيه، وفي الحال أخذت من دون لف ودوران أحدثهم عن نبي دمشق بينما هم في كامل الإصغاء.

لم يكن المريديون في أثينا كثر، ولكنهم شكلوا نواة ممتازة لتجمع كنسي مهم وديونيسيوس أسقفه. يجب أن أعترف أن الإيمان ليس معطى للجميع! يقف في طريق الوصول إليه العجرفة العقلية والتأليه الذاتي. يقف في طريقه غرائز ترفض أن تتهذب وقدرة ضحلة على حب الآخر ومساعدته. إن العقل اليوناني مصَمَّم كي لا يؤمن معتقدًا أن الإيمان يعيق التعبير عن الجمال واللذة وتقديس الجسد. هل فشلت في ذكر هذه الأفكار في خطبتي في "آريوس باغوس"؟ هل كان علي

أن أستفيض أكثر، فأُعلن أن الإيمان بحد ذاته ليس مرتبطًا بإله أو عقيدة أو فلسفة؟ هل هي مهابة العقول التي كانت تتطلع إلي لتصطاد الخطأ من فمي! هل ضعفت؟ هل أعيتني الحيلة والحجة؟

أرحت جسدي فوق السرير من دون أن أغفو. كل ماحدث اليوم يدور في عقلي مثل طاحون تحركها ريح لا تتوقف. غدًا، سوف أكون على المركب باتجاه كورنثية[1]. ها هي الأيام تتحرك باتجاه أهدافها، كأنني أُدفع من قدمي بقوة لا قدرة لي على مقاومتها. كأنني أضع خطواتي في مواقع رُسمت لها، أم تراني أنا الفاعل! الله أعلم!

* * *

ما إن وصلت إلى كورنثية حتى عدت إلى المجمع في السبت أحاجج اليهود واليونانيين، لكنهم كانوا يجدفون، وينكرون، ويقلبون الحكام علي، ويفتنون، حتى نفضت غبار نعلي عنهم وقررت أن أذهب إلى الأمم.

إن الصوت في رأسي يطلب مني العودة إلى سورية، وهكذا قررت الإبحار مرة ثانية من كورنثية إلى أورشليم، لكني عرفت أن

---

(1) كورنثية: هي مدينة قديمة تقع على بعد حوالي 48 ميلاً إلى الغرب من أثينا على امتداد ضيق من الأرض يربط البيلوبونيز بالبر الرئيسي لليونان. كانت كورنثية مدينة مهمة في اليونان القديمة، ولعبت دورًا رئيسيًا في العمل التبشيري للرسول بولس. وكان محيط المدينة خمسة أميال، ويوجد إلى جنوبها مرتفع شاهق علوه 2000 قدم سمي أكمة كورنثوس. وكان على قمة هذه الأكمة هيكل لأفروديتي إلهة الحب، وكانت لكورنثوس تجارة متسعة حتى أصبحت مركزًا للغنى والترف والعلم فحسبت كورنثية زينة بلاد اليونان. لكنها اشتهرت أيضًا بالخلاعة حتى أصبحت مضربًا للمثل في ذلك وصار إذا قالوا: "عاش فلان في كورنثية" فإنما كانوا يعنون بذلك أنه خالع العذار فاجر، وإذا قالوا "امرأة كورنثية" فإنهم كانوا يقصدون بذلك أنها سيئة الأدب والسيرة. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

بعض اليهود كانوا يخططون لشق رحلتي، فعدت إلى مقدونية برًا ومنها إلى بيريا وسالونيكي وفيليبي حيث التقيت مع لوقا مرة أخرى، وكانت الأيام فصحًا فمكثنا بعض الوقت ثم أبحرنا من فليبي إلى تروآس لنصلها بعد خمسة أيام، ونقابل كلًّا من سيلا وثيموثاوس وبعض الإخوة من ممثلي الكنائس الذين كانوا يساعدون في جمع هدية نقدية إلى الكنيسة الأم.

لم أقرر الإبحار إلى أورشليم في خط مباشر، إنما بدلًا من ذلك، عزمت على الذهاب إلى آسوس، ومنها مع بقية الإخوة، إلى ميتليني[1] وتروجيليون[2] وميليتس[3] متجاوزين أفسس التي لم أرد أن أتوقف فيها خوفًا من أن أبقى أطول مما أشاء وأنا كنت راغبًا في أن أكون في أورشليم بحلول يوم الخمسين (الفصح). وهكذا أبحرنا إلى باتارا[4]، ثم إلى صور في سورية.

---

(1) ميتليني: هي عاصمة جزيرة ليسبوس اليونانية وميناؤها. كما أنها العاصمة والمركز الإداري لمنطقة شمال إيجه، وتستضيف المقر الرئيسي لجامعة بحر إيجه. تأسست في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وكانت في أيام بولس مدينة حرة رومانية مشهورة ببهائها.

(2) تروجيليون: مدينة ورأس عال واقعة غربي شاطئ آسيا الصغرى مقابل جزيرة ساموس.

(3) ميليتس: وهي مدينة بحرية قرب شاطئ آسيا الصغرى الغربي على بعد 26 ميلًا جنوبي أفسس إلى الجهة الجنوبية الغربية من خليج لَتمُس مقابل مصب نهر مياندر. كان الرومانيون قد عملوا لهذه المدينة أربعة مرافئ وكانت لها تجارة عظيمة غير أنه لما كثرت الرواسب جيلًا بعد جيل بعد أيام بولس امتلأ الخليج وصار موضع المدينة القديمة على بعد 10 أميال من الشاطئ.

(4) باتارا: مدينة في تركيا، وهي مدينة قديمة في آسيا الصغرى على ساحل ليكيا، وتبعد 5 كم عن مصب نهر كسانثوس (وهو الآن إيشن تشاي). Wikiwanda.

إلى سورية

أقف على سطح سفينة متجهة الى فينيقية. على يساري تتراءى قبرص من الأفق البعيد بينما على بعد ساعات قليلة تنتظرنا صور حيث أنوي أن أمكث فيها بضعة أيام، وهي مدة تفريغ السفينة لحمولتها.

كان لقاء الأخوة كما توقعت، حميمًا ودافئًا، لكنهم حين عرفوا بنيتي السفر الى أورشليم حاولوا ثني عن القيام بذلك. قالوا إن الخطر سوف يكون قدري الأكيد هناك. لقد أخذت تحذيرهم لي كإشارة إلهية لكي أنتبه وليس من أجل العزوف عن السفر. إن شوقي للوصول يفوق أي شوق آخر. حين أقف فوق سطح المراكب المسافرة، يخفق قلبي مثل طير مهاجر يتطلع لكي يريح جناحيه في مكان هواه.

شيعني الجميع في صور ومشوا معي حتى وصلنا الى المرفأ حيث السفينة المنتظرة. رأيت الحب في عيونهم والتعلق. لقد حضرت حتى النساء وأطفالهن لتوديعي. مرة ثانية، على رصيف الميناء، أعادوا نشيد خوفهم علي وتحذيرهم لي بعدم السفر الى أورشليم. قالوا لي بأنني سوف أربط، وسوف أسلم الى سلطات الإمبراطورية هناك، حتى أن البعض منهم قد ذرف دموع القلق والخوف علي!

– ماذا أنتم فاعلون أيها الأحباء؟ إنكم ببكائكم هذا تكسرون قلبي! إنني مستعد أن أموت من "أجله" لا أن أربط فقط.

انطلقت مطمئنًا تلك الوجوه الخائفة الحزينة باتجاه قيصرية التي

غادرتها على وجه السرعة عن طريق البر إلى أورشليم بسبب قصر المسافة بين المدينتين. حين وصلت، مكثت لدى رجل من قبرص اسمه مناسون، استقبلني استقبالًا حسنًا أنا والإخوة. كنت مشتاقًا لملاقاة المشايخ، وهذا ما حصل إذ أمكن لي أن أجتمع مع حشد كبير منهم. لقد حدثتهم عن كل ما قمت به وكذلك عن الكنائس الكثيرة التي تأسست في أوروبا والمشقات التي صادفتها منذ أن وطئت قدماي دمشق. لقد رأيت الفرح في عيونهم لكن البعض أخذ يقول: إن الذين انقلبوا إلى المسيحية من اليهود ما زالوا متمسكين بشريعة موسى. لقد عمد هؤلاء إلى تشويه سمعتي بكذبهم. إنهم ينادون بضرورة التهود قبل التنصر. مرة أخرى أشعر بأنني بين أنياب شر مستطير، فمن لم يؤمن من اليهود كان يكرهني، ومن كان يؤمن كان يشك بي. لقد جعلوا يتحدثون إنني أطالب بمنع تنفيذ ناموس موسى وتحريم الختان. وهكذا هاج الكل علي. لكن الإخوة اقترحوا لكي تهدأ النفوس ضدي أن أتطهر أمامهم فيهدؤوا، أن أطبق الشريعة وأصطحب معي رجالًا أربعة متنصرين عليهم نذور، ثم أقوم بالإنفاق عليهم من مالي كوجيه يهودي مقتدر، بعد ذلك فليحلقوا رؤوسهم قبل تقديم النذور، لأقوم بعدها بتقديم كل الذبائح المطلوبة، وهكذا يرى الكل بأعينهم أنني حافظ للناموس، فتتوقف الأكاذيب عني وتنطفئ، ويتوقف هيجان اليهود ضدي. أما بقية المتنصرين الأمميين فقيل لهم ألا يلقوا بالًا لأي شيء من الشريعة عدا عدم أكل ذبائح الأصنام وكذلك عدم الزنا.

لم أعترض على طلب الإخوة. أخذت الرجال، وتطهرت معهم بحسب الشريعة، ثم أعلمت الكهنة بأنه باق أسبوع على إتمام النذور فليتم تجهيز الأضاحي. لكن قبل أن تنتهي الأيام السبعة، وهي فترة التطهيرات والصلاة والتعبد بالنسبة لليهود القادمين من نواحي مدينة أفسس، قامت الجموع بالانقلاب والتحريض ضدي. لم يكتفوا بذلك وإنما ألقوا أيديهم علي، وأخذوا يجذبونني ويصرخون مدعين أنني أدخلت وثنيين إلى الهيكل لكي أدنسه. لقد قدموا تهمة تستوجب قتلي في الحال فلا أحد يدنس الهيكل، وعلاج ذلك لا يكون إلا بالقتل الناجز. لقد كانوا يكذبون. إنني لست خبيثًا، ولا مبيتًا الشر لأحد، لكنهم رأوني مع تروفيمس الأفسسي، وهكذا ظنوا أنني أدخلته الهيكل.

* * *

قامت أورشليم كلها، ولم تقعد. لقد هرع اليهود إلى الهيكل، وقبضوا علي، ودفعوني خارجه، ثم أغلقوا الأبواب خوفًا عليه من التدنس. لقد ضُربت بشدة حتى شارفت على الموت. الصخب كان كبيرًا حولي، وأنا أُدفع بوهن جسدي بين القبضات واللكمات.

وصل إلى مسامع الحرس الروماني المرابط قرب الهيكل ما حدث، فأخبر بدوره أحد الأمراء الذي يقود كتيبة يتجاوز عدد جنودها الألف، اسمه كلاوديوس لسياس، ليقوم الأخير بإرسال عدد من "قادة المئة" مع جنودهم، ليقتحموا الحشد الهائج حولي، ويأمروهم بالتوقف عن ضربي. لقد اقترب مني كلاوديوس، وأمر أن يقيدوني بالسلاسل، ثم علا صوته متوجهًا إلى الجمع:

– من يكون هذا؟ وماذا فعل؟

لقد كان من المستحيل أن ينبري أحد ما ليقول له من أنا، ذلك أن كل واحد من هذا الحشد كان يصرخ، ويتحدث على هواه، وهكذا أمر أن يأخذوني إلى معسكر الكتيبة. حين صعب علي هبوط الدرج الموصل بين ساحة الهيكل والقلعة بسبب تدافع الحشد حولي، أحاط بي الجنود ثم حملوني بينما الأصوات المطالبة بقتلي من دون محاكمة كانت ملء الفضاء.

ما إن اقتربنا من دخول القلعة حتى استأذنت من أمير الكتيبة أن أتحدث إلى الجموع. لقد طلبت منه ذلك بلغتي اليونانية، فالتفت الي بدهشة:

– هل لي أن أقول لك شيئًا؟ أنت تعرف اليونانية! ألست أنت المصري[1] الذي قام بفتنة؟

– أنا رجل يهودي من طرسوس، من كيليكيا. وإنني ألتمس منك أن أكلم الشعب.

– حسنًا، لك ما تريد!

حالما أذن لي أمير الكتيبة، وقفت أعلى الدرج، ثم مددت يدي أمام الحشد، وصرخت بالعبرانية "أيها الرجال الإخوة والآباء، اسمعوا احتجاجي الآن لديكم"، فصار صمت كبير:

---

(1) كان رجل مصري قد قاد مجموعة من اللصوص والقتلة إلى أورشليم، وادعى أنه نبي، وبلغ عدد أتباعه ثلاثين ألفًا، وأقنعهم أنه إذا وقف معهم على جبل الزيتون تجاه أورشليم وأمر أسوار أورشليم بالسقوط، فإنها ستسقط ويقودهم لنهب المدينة. وقد حاربهم فيلكس الوالي، وقتل منهم أربعمئة فرد وأسر مئتين، ثم هرب المصري وتشتت جيشه سنه 54 م. وقد ظن الأمير أن بولس هو هذا الرجل الذي كان مطلوبًا القبض عليه.

"أنا رجل يهودي، ولدت في طرسوس، ورُبيت في أورشليم، هنا، تحت أقدام غملائيل من أجل تحقيق الناموس النبوي. كنت غيورًا لله كما أنتم الآن جميعكم اليوم. لقد اضطهدت كثيرًا، وأرسلت الكثيرين من النساء والرجال مقيدين بالسلاسل إلى السجون كما يشهد رئيس الكهنة والمشيخة. كنت أريد أن أُرجع المنقلبين على الناموس في دمشق مقيدين لكي يعاقبوا هنا. لكن في الطريق إليهم، في الطريق إلى دمشق، عميت ثم أبصرت وآمنت...".

وطفقت أحكي لهم كل ما وقع لي حتى اللحظة التي أقف فيها أمامهم. لقد أخبرتهم كيف تنصرت على يد حنانيا اليهودي، المدقق في حفظ الناموس، والذي أصبح كاهنًا. أخبرتهم عن مكوثي في الصحراء ثلاث سنوات في خلوة أتعلم "منه" مباشرة لأنطلق بعدها أعلم وأبشر بين اليهود والأمم. لقد أردت أن يحفزهم ماضي حين قبلت وتهاونت في قتل استيفانوس وكيف كنت حارسًا على ثياب راجميه. لكن الجموع جنوا، وهاجوا من جديد معتبرين أنني أفضل بقية الأمم عليهم، وطالبوا الأمير بقتلي. لقد خلع الحشود ثيابهم، وطرحوها جانبًا، وكأنهم يستعدون لرجمي، ثم أخذوا ينثرون الغبار في الفضاء معترضين وموجهين صيحاتهم إلى الأمير الذي كان يستمع من دون أن يفهم كلمة عبرية واحدة مما كنت أقول، وهكذا أمر بإنهاء خطابي، وأخذي إلى القلعة لتعذيبي بالضرب فلربما أعترف بسر هذا الكره الكبير لي.

حين مدوني للسياط، التفت إلى قائد المئة الواقف بالقرب مني وقلت: "أيجوز لكم أن تجلدوا رومانيًا غير مقضى عليه؟" في

الحال، جعل سؤالي الرجل يفتح عينيه على سعتهما ثم هرع إلى الأمير لكي يخبره. يا لهذه المواطنة التي تشيلني وتحطني وتلفني مثل قدر يأتي، ولا يأتي. لقد حدق بي الأمير وسأل كمن وقع له شيء لا يخطر على بال.

– قل لي الآن، هل أنت روماني؟

– نعم!

– أما أنا، فبمبلغ كبير اقتنيت مواطنتي الرومانية!

– أما أنا، فقد ولدت فيها.

ابتعد الحرس عني في الحال، واختش الأمير لأنه جعل في يدي الأصفاد. إن القياصرة يبيعون المواطنة لمن يدفع ثمنها، يبيعون اللقب وليس العقيدة، يبيعون الزي، وليس الروح.

لقد حلوا أصفادي، وطلبوا من رئيس الكهنة أن يحضر مع مجلسه كله، فالأمير راغب أكثر من أي وقت مضى أن يعرف لمَ اليهود يشتكون علي ومني!

لقد أنزلوني من القلعة لكي أحاكم أمام المجلس الذي لطالما كنت عضوًا فيه. أخذت أتفرس جيدًا في الوجوه واحدًا واحدًا، تُرى ألم يعرفوني؟ ألم يتعرف البعض منهم علي؟ وطفقت أتحدث:

– أيها الرجال الإخوة. إني بكل ضمير صالح قد عشت لله إلى هذا اليوم.

وفجأة، جن رئيس الكهنة عندما سمعني أخاطبهم بكلمة "إخوة"، فأمر بضربي على فمي.

– سيضربك الله أيها الحائط المبيض. رددت.

لقد ظن الحاضرون أني أشتم رئيس الكهنة عمدًا. لا، لم أكن أعرف أن هذا المارق كان رئيسهم. لكني عرفت، عندما جلت بنظري عليهم، أن قسمًا من المجمع كان فريسيًا والآخر صدوقي، وهكذا صرخت بأعلى صوتي لكي يسمعوا:

– أيها الرجال الإخوة، أنا فريسي ابن فريسي، على رجاء القيامة أنا أُحاكم! وفي الحال انقسم الجمع إلى شقين، وأخذوا يتجاذبونني، الفريسيون الذين يؤمنون بقيامة الروح نسوا لوهلة حقدهم، وأخذوا يدافعون عني، ويحمونني، بينما أصاب الصدقيون جنون وغضب، هم الذين لا يرون أية قيامة للروح. إن الهرج والمرج الذي وقع أشعل الذعر في قلب الأمير، إذ إن موت مواطن روماني في مجلسه من دون محاكمة سوف يقضي عليه، وهكذا أمر جنوده بإعادتي إلى القلعة.

المؤامرة

شُكل تحالف من أربعين رجلًا من الصدوقيين تقدموا إلى رئيس الكهنة والشيوخ مسلحين بغضب وصل إلى حده:

– لقد حرمنا على أنفسنا ألا نذوق شيئًا حتى يكون بولس جثة هامدة. اطلبوا إنزاله من أجل إعادة محاكمته وفي الطريق سيقوم بعض الغاضبين بقتله، وهكذا لا تهمة سوف توجه إلى أي من رؤساء الكهنة.

لم يكن هناك حرص كبير من الثائرين ضدي على هذا السر. لقد اشترك به حشد كبير. كان ابن أختي في أورشليم وصدف وجوده بين الجموع المتآمرة، فسمع بكل ما دار، وفي الحال توجه إلى القلعة، مكان اعتقالي طالبًا رؤيتي.

– أسرع وأخبر الأمير بما قلته لي توًّا!

تلطف الأمير مع ابن أختي، وسأله على انفراد عما لديه. كان يصغي بانتباه لكل كلمة. أصبح لديه إحساس شبه راسخ من براءتي إذ إن مكيدة قتلي تورطه هو أيضًا. لقد طلب من ابن أختي ألا يخبر أحدًا بما قاله له تجنبًا للانتقام، وهكذا قرر أن يرسلني إلى قيصرية لمحاكمتي.

أخذ ما يقرب من خمسمئة جندي يتحضرون بكامل عتادهم وأسلحتهم لنقلي إلى قيصرية بعد المغرب حين يهدأ صخب الأزقة وحركة الناس.

كنت أتمايل على حصان خصص لي محاطًا بالجنود ومتجهًا

إلى فيلكس الروماني حاكم قيصرية. لقد زود قائد المئة برسالة من الأمير يقول فيها إنني روماني الجنسية، وأنه أنقذني من أيدي اليهود قبل أن يقوموا بقتلي. لقد ذكر له أيضًا أن الخلاف هو ديني، وليس سياسي وإنني بريء من أية تهمة يحاسب عليها القانون الروماني.

في الصباح عاد المشاة إلى أورشليم بينما بقي معي الفرسان الذين أكملت معهم الطريق إلى قيصرية حيث سلموني إلى الوالي فيلكس وكذلك رسالة الأمير عني.

"سوف أعقد محاكمة قانونية عند حضور خصومك من أورشليم"، قال لي فليكس. ها إني معتقل الآن ورهن التحقيق في قصر هيرودس الكبير في قيصرية، هذا القصر الذي لطالما قض الأرق مضجع طاغيته، فأخذ يدور حول نفسه فيه مناديًا ربما أرواح من قتلهم في فورات جنونه. حول هذا القصر، احتشد اليهود مرة وهم ينوحون ويبكون مترجين كاليغولا ألا يدنس الهيكل بتمثاله، وفي قاعاته وغرفه تمت العديد من الاستجوابات والتحقيقات كما سُمع صوت المظالم عاليًا. كل هذا يرن الآن في أذني وأراه أمامي.

* * *

مرت خمسة أيام، والأصفاد والسلاسل تلتف حول جسدي، وذلك قبل أن يحضر رئيس الكنهة ومحاميه الروماني ترتلس وحشد من اليهود الغاضبين. إنني هنا في مكاني لا أغادر بينما ركب لي عقلي جناحين كبيرين، أطير، وأغط أينما يحلو لي. إنني لا أتحضر لأية مواجهة وإنما أترك الأمور تسير منقادة بضوء هذه

الجذوة التي اتقدت في دمشق، ولم تنطفئ إلى هذه اللحظة.

بدأت المحاكمة أمام فيلكس بعرض الشكوى ضدي. بعد ذلك، أخذ ترتلس، المحامي، مرافعته ممتدحًا الوالي بقوله إن الأمة اليهودية لم تعرف الأمان إلا بسبب عدالة حكمه وإخماد فتنًا كثيرة ضدهم. إنه يتوجه بنفاقه إلى قاتل يوناثان رئيس كهنة اليهود سرًا بمديح ليس فيه. لقد اتهمني ترتلس بثلاثة تهم كبيرة تستجلب الإعدام في القانون الروماني. قال إني مفسد للشعب ومهيج للفتنة بين يهود العالم كلهم. قال إني متزعم لجماعة الناصريين المهرطقة، وإنني دنست الهيكل حينما أدخلت تروفيمس الأفسسي الأممي إلى مكان لا يجوز أن يدخله إلا اليهود. قال كثيرًا، وأعاد وزاد ثم أكمل منتقدًا الأمير الذي أخذني منهم بالقوة بينما هم كانوا يريدون محاكمتي بالعدل، كما حملهم، فوق كل هذا، مشقة السفر إلى قيصرية لكي يترافعوا أمامه.

بعد أن سكت ترتلس، أُذن لي بالدفاع عن نفسي. لقد جَعل صوت السلاسل التي قُيدت بها قدماي صمتًا مطبقًا في المحكمة حالما حركت جسدي استعدادًا للكلام:

– وصلت إلى أورشليم منذ اثني عشر يومًا فقط، قضيت أغلبها في السجن. لقد دخلت الهيكل لا لتدنيسه؛ وإنما من أجل العبادة. هل قبضتم علي أحاضر أو أهيج الجموع في الهيكل، أو أثير الناس في الشوارع؟ كلا، لم تفعلوا! تقولون عني إنني من شيعة الناصريين، وأنا لا أنكر هذا بل أفتخر به. وإذا كنت أقول بهذا، لِمَ على القانون الروماني، إذًا، أن يعنيه بعض الخلافات الدينية بين

أبناء الطائفة الواحدة؟ أين الجريمة في ذلك على أمن الدولة؟ إنني أومن بالقيامة العامة، قيامة الروح للجميع. ما الضير في ذلك؟ ماذا تقولون عن الصدقات التي قدمتها لليهود والتي جمعتها من كنائس الأمم التي كرزت فيها؟ أم تريدون أن تقلبوا كل هذا إلى تهديد للدولة التي أحترم؟ الصديقيون يريدون هذا وهذا بعيد عن الحقيقة!!!

تطلعت إلى فيلكس فرأيته واجمًا يفكر. أعرف أنه يشعر بأنه محشور بين حدين أسهلهم مر. إنه يفهم ما أقول، كما أن زوجته اليهودية مؤمنة، وهو يعرف عندما يتشاجر اليهود كيف يفعلون ذلك ولمَ يفعلونه. وتوجه بكلامه إلى الجموع:

– طالما استشهدتم بالأمير ليسياس في دفاعكم، إذا سوف أنتظر حضوره من أورشليم، لأستمع لما سيقوله، وعندها سوف أفحص شكواكم، وأبت فيها.

ثم استدار نحو قائد المئة طالبًا منه أن يحرسني وألّا يمنع أحدًا من الإخوة والأصحاب من زيارتي أو خدمتي.

وتكرر استدعاؤه واستجوابه لي، وفي كل مرة كان يُلمح إلى إمكانية إيجاد حل لعتقي إذا توفر المال، فإذا كانت المواطنة الرومانية تُشترى، وتباع، إذا لمَ لا يدفع المرء أيضًا مالًا لتحرير نفسه! لكني بريء في نظر نفسي، وهذا الأمر المشين ليس واردًا في عقلي.

في إحدى المرات، طلبت دروسلا اليهودية، امرأة فيلكس منه أن تراني، وتسمعني في واحدة من هذه الجلسات، فلبى طلبها.

لقد حضرت أمامهما بجذوة قلبي المشتعلة وقيودي وتعب الاعتقال الطويل على وجهي. كانت عينا دروسلا مفتوحتينِ على سعتهما وانتباهها في أوجه. لقد طلبت مني أن تعرف بعضًا من أفكاري، فاستفضت في الحديث عن القداسة والعفة ويوم الدينونة. ارتعب فيلكس من حديثي، وكأن سهمًا أصاب روحه. يداه الخطّاءتان أخذتا ترتجفان، ثم وقف فجأة طالبًا انصرافي وتأجيل الكلام إلى وقت لاحق.

* * *

بقيت عامين كاملين في المعتقل في قيصرية. لقد استدعت روما فيليكس للتحقيق في شكوى اليهود ضده، وهكذا أتى فستوس واليًا بدلًا منه، وكانت الأيام سنة ستون بعد ولادة نبي دمشق.

استمر اليهود بالتحريض ضدي وإرسال الشكاوى. لقد قدموا ورقة إلى فستوس تطلب منه إرسالي إلى أورشليم لتتم محاكمتي هناك لكن رده كان قاطعًا:

– بولس سوف يبقى هنا، أما أنتم فإذا كانت لديكم أية مظالم فأتوا بها إلى قيصرية.

عادوا مرة ثانية إلى قيصرية، واحتشدوا في قاعة المحكمة التي حولوها إلى مكان كثير الصخب والصراخ. لقد كنت أقف أمام الجمع مقيدًا بأصفادي والسلاسل. كنت أصغي إليهم وأنا شبه مبتسم، صاغرًا صابرًا لا بداعي العجز وإنما الحلم. لقد جنن صخبهم الوالي فستوس ونفد صبره فخاطبني:

– أتريد أن تذهب إلى أورشليم؟

وفي الحال فكرت أن أستعين بحقي كمواطن روماني فقلت:

– أنا أقف في هذه اللحظة أمام مقام ولاية قيصرية حيث ينبغي أن أحاكم. أنا لم أظلم اليهود بشيء، كما تعلم ذلك أنت نفسك جيدًا. لأني لو كنت آثمًا، أو فعلت شيئًا يستحق الموت، فلن أُعفى من الموت. لكن إذا لم يكن هناك من شيء مما يقوله هؤلاء، إذا لا أحد يستطيع أن يسلمني لهم. إلى قيصر أنا رافع دعواي.

رد فستوس في الحال:

– إلى قيصر رفعت دعواك! إذا، إلى قيصر تذهب.

عدت إلى سجني لأستعد للسفر بينما ذهب فستوس إلى مكتبه ليكتب تقريره عني.

ميناء قيصرية، إلى روما

وقف الجنود الرومانيون متراصين بدروعهم وخوذهم النحاسية التي لمعت تحت شمس أيلول الدافئة. كانت فرقة "أغسطس قيصر" هي المكلفة بحراسة السجناء المقيدين والمتجهين إلى روما للمحاكمة، وأنا كنت بينهم. لهفتي في الوصول كانت تقفز، مثل أرنب صغير، فوق الزمن الطويل الذي خمنته للوصول. إن لي أحباء كثر في روما، فلقد وصلت كلمتي إليهم، وسكنوا إليها.

لقد كان قائد المئة الذي كنا في عهدته والذي كان يبحر معنا للحراسة، متعاطفًا معي وقريبًا مني. لمحته عدة مرات يصغي إلي بانتباه. لقد عرف قاع قلبي، وأمن لي، ووثق بكلمتي. شعرت بالسكينة تغمرني، هدأت مثل بحر بعد عاصفة.

انطلقنا في رحلتنا متجهين إلى صيدا ومنها إلى ميراليكا[1] حيث عثر فيها قائد المئة على سفينة إسكندرانية تحمل القمح متجهة إلى روما، فانتقلت مع الأسرى إليها. كنا نسير الهوينى، بسبب الريح القوية، بمحاذاة الشاطئ إلى أن وصلنا إلى الموانـي

---

(1) ميراليكا: مدينة ميرا في ليقية. ميراليكيا كانت يونانية قديما، ثم يونانية رومانية، ثم يونانية بيزنطية، ثم مدينة عثمانية في ليقيا، والتي أصبحت بلدة كالي التركية الصغيرة في مقاطعة أنطاليا في تركيا على البحر المتوسط. يعود بناء ميرا إلى 100 قبل الميلاد. كانت ميرا تقع على ضفاف نهر أندرياكوس على بعد عشرين فرسخًا من البحر، وكانت قرية أندرياكا بمثابة مرفأ لها. الموسوعة الكاثوليكية.

الحسنة[1]. أعرف أن الطريق طويل، طريق بحري لا تختصره الحكمة والهدوء الداخلي؛ وإنما الإبحار الحثيث، لكني أعيش في عقلي وفي قلبي، لهذا لم أكن آبه بالزمن. إنني أتبع زمنه هو فقط. يرفع يده، ويأمرني، يرفع صوته، ويأمرني، يمر بناظريه علي وأنا أطيع. إنني لست مثل هذه الرياح أو السفن التي تختفي وتظهر بين الأمواج العالية. إنني السكينة بذاتها.

لقد اقترح الربان أن نتجه إلى مدينة فينكس[2] لنقضي الشتاء فيها، وهكذا رُفعت مرساة السفينة، واتجهت بمقدمتها الضخمة إلى جزيرة كريت فتجاوزتها، لكن ريحًا تحمل زوابع وصواعق قد لفت سفينتنا من كل الجهات. رأيت الهلع لأيام على وجه رفاق الرحلة حتى فقدوا الأمل بالنجاة. إنني بشر مثلهم، من نفس الطين، لكن حتى الموت كان بوابة وصول بالنسبة لي، وهكذا أخذت أشدّ من أزر الجميع. "إنه" يملؤني، إذًا لمَ عليّ أن أخاف الآن؟

---

(1) الموانـي الحسنة: ميناء على الشاطئ الجنوبي لجزيرة كريت. والاسم اليوناني لهذا الميناء في أيام بولس الرسول كان كلوي ليمينيس (Kaloi Limenes/Kali Limenes) ومعناه الموانـي الحسنة. ويسمى الآن ليمينيس كلي. وهو يقع شرقي رأس متالة بخمسة أميال.. وهي معروفة بكونها بقعة تموين رئيسية للسفن في جنوب البحر الأبيض المتوسط. وفقًا لسفر أعمال الرسل، هبط الرسول بولس في كالوي ليمينيس في طريقه من قيصرية إلى روما كسجين للرومان.

(2) فينكس: اسم يوناني معناه "نخل"، وهي ميناء يقع في القسم الجنوبي من جزيرة كريت. يعتبر الموقع آمنًا طوال السنة لكون مدخل مرفئه نحو الشمال والجنوب الغربيين أو الشمال والجنوب الشرقيين (أع 27: 12)، وتدعى المدينة اليوم لوترو. دائرة المعارف الكتابية المسيحية.

هل هم عبرانيون؟ وأنا كذلك! هل هم إسرائيليون؟ وأنا كذلك! هل هم من نسل إبراهيم؟ وأنا كذلك! هل هم عبيد نبي؟ وأنا أفضل عبد له. جهدت أكثر، سجنت أكثر، تلقيت ضربًا بالعصي لا حصر له وصل للموت في أغلب الأحيان. تلقى ظهري أربعين جلدة على يد اليهود. رجمت بالحجارة. غرقت بي سفن كثيرة وفي رحلات متكررة. خطر أحاط بي في البحر والنهر والبر، خطر أتى من شعبي، من الأمم، من المدن التي زرتها، من الإخوة الكذبة. عشت الكد والمشقة خلال ليال طويلة بلا نوم. عشت العطش والجوع، عشت البرد والشموس الحارقة. كل هذا إلى جانب قلقي الكبير واليومي على جميع الإخوة وكنائسهم. من هو إذًا الخائف والضعيف؟

* * *

بعد ليل طويل على سطح السفينة الحالك، أخذ البعض يقفز صارخًا، "هناك أرض قريبة... إنها هناك تتراءى في الأفق!" لكن الريح الزوبعية العاتية دفعت سفينتنا بقوة، فمالت مقدمتها ودفُنت في الأرض الرملية بينما أخذت تطوح، وتتكسر على الصخور القاسية والناتئة برؤوسها من عمق البحر، فلم نجد أنفسنا إلا وكل منا متعلق بلوح خشبي طاف فوق المياه المتعبة، وهكذا وصلنا إلى البر جميعًا بين جريح ومصاب ومرعوب.

كانت جزيرة مالطة هي الأرض التي رآها بعض البحارة تتراءى من البعيد. لقد نجونا إلى البر حيث تجمع حولنا سكانها ليمدوا لنا يد العون. وهكذا مكثت فيها ثلاثة أشهر الشتاء مع قائد المئة وبقية

السجناء والبحارة. مع قدوم الربيع، أخذ الدفء يرمي بأمان الطريق أمامنا، وهكذا أقلتنا سفينة إسكندرانية تحمل القمح إلى بيوتولي[1]. إن السفن المحملة بالقمح تدخل الموانئ مرفوعة الرأس بشيء من الفخر. إنها مثلي، أنا الحامل لشغفي، لهمي، لهذا الحزن العظيم، ووجع القلب الذي لا ينقطع. أريد للجميع أن يأكل لا قمح هذه السفن المباركة فقط وإنما خلاصهم الأبدي.

(1) بيوتولي: مرفأ قديم في إيطاليا.

من بوابة كابينا

هالني جمال روما التي كنت أتطلع إليها وأنا أقف على ظهر السفينة التي تدخل بتؤدة إلى الميناء. الحدائق والفيلات الجميلة والمناظر الخلابة كانت واضحة لعيني المرهقة. حين أنزلنا أمتعتنا على رصيف الميناء، أشار لنا قائد المئة يوليس الذي يتقدمنا أن ندخل روما من بوابة كابينا[1]. لقد شعرت بإنهاك الجنود الذين هدّ قواهم السفر، والذين كانوا يحيطون بنا من كل الجهات جارين أسمالهم. أنا أيضًا كنت متعبًا لكن الوصول إلى عاصمة الدولة جعلني متنبهًا ويقظًا. أشار أحدهم إلى قصر نيرون أمامنا الذي يقع على تل البلاتين[2]. كان الحرس الإمبراطوري يحيط بالقصر، الحرس المدجج بالسيوف تحت عباءات التوجة[3]. لقد كنا نتقدم

---

(1) بوابة كابينا: كانت (بورتاكبينا) بوابة في سور "سرفيان" في روما. يشير موقع البوابة وبعض الشهادات عنها إلى انها كانت تسمى كامينا في الأصل وأن بناءها تم حتى قبل جدار سرفيان. يعود أول ذكر تاريخي أسطوري للبوابة إلى زمن الملك تولوس هوستيليوس (منتصف القرن السابع قبل الميلاد).
Dionysius of Halicarnassus, Roman Antiquities, VIII, 3.

(2) تل البلاتين: ينسب إلى تلال روما السبعة، وهو واحد من أقدم أجزاء المدينة وقد سمي "النواة الأولى للإمبراطورية الرومانية".

(3) التوجة: هي ثوب مميز كان تقليديا في روما القديمة. هو عبارة عن قماش نصف دائري تقريبًا، يتراوح طوله بين 12 و20 قدمًا (3.7 و6.1 مترًا)، ملفوفًا فوق الكتفين وحول الجسم. كانت تُنسَج عادةً من الصوف الأبيض وتُلبس فوق سترة. قاموس البعلبكي.

بمحاذاة الفوروم الروماني[1]، ومنه صعدنا إلى تل الفيمينال[2]، ثم مال الطريق بنا، فمررنا بحديقة كبرى فيها مذابح لآلهة رومانية وكذلك بمكان يشبه الباحة الكبيرة رأيت فيه عسكرًا وعتادًا خمنت أن يكون مكانًا للتدريب والاستعراض. لقد سرت مع قائد المئة، يوليس، وبقية الأسرى من شارع إلى آخر حتى وصلنا إلى مقر "الحرس البريتوري"[3]. سُرَّ قلبي عندما رأيته يوصي بي لقائد هذا الحرس فاعتنى بي عناية كبيرة. لقد قدموا لي منزلًا خاصًا بي أبقى فيه تحت الإقامة الجبرية بدلًا من العيش في زنزانة، كما سمحوا لمن يريد السؤال عني أن يأتي لزيارتي. مع ذلك، بقيت يداي مقيدتين بالسلاسل؛ بينما كان جندي حراسة يروح، ويجيء أمام باب البيت. لقد كان لي أصدقاء وإخوة كثر في المدينة أتوا لزيارتي للشدّ من عزيمتي. كانوا يأتون إلي كل يوم في الأمسيات

---

(1) الفوروم الروماني: وهو منتدى مستطيل على شكل ساحة تحيط بها أطلال العديد من المباني الحكومية القديمة المهمة في وسط مدينة روما. كان هذا المنتدى سوقًا في الأصل لقرون عديدة، ومركزًا للحياة اليومية في روما: موقعًا للمواكب المنتصرة،مكانًا للخطب والمحاكمات الجنائية ومباريات المصارعة، وكذلك نواة للشؤون التجارية. فيه أيضا تُخلد تماثيل وآثار ذكرى رجال المدينة العظماء. إن هذا الفوروم هو القلب النابض لروما القديمة.

Grant, Michael (1970), The Roman Forum, London: Weidenfeld & Nicolson; Photos by Werner Forman, p. 11.

(2) تل الفمينال: وهو أصغر التلال السبعة الشهيرة في روما.

(3) الحرس البريتوري: ويسمى أيضًا الحرس الإمبرطوري، هو الحرس الشخصي الذي كان مسؤولًا عن حماية الأباطرة الرومان في روما القديمة.

الطويلة نتحاور، ونتناقش تحت عين الحرس الصبورين. لقد التقيت أيضًا بأعيان اليهود الذين شرحت لهم بالتفصيل كيف حدث ما حدث، وكيف وصلت إلى هنا. قلت لهم: إنني أجبرت على رفع دعواي إلى قيصر كما حدثتهم كثيرًا عن رجاء إسرائيل ووعود نبي دمشق. "لقد صرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس لأربح الذين بلا ناموس، صرت للضعفاء كضعيفٍ لأربح الضعفاء؛ صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حالٍ قومًا"[1]. لكن قلب شعبي كان قاسيًا جدًا وكأنني كنت أتحدث لحجر أصم.

مرّ عامان، وأنا على هذه الحال. ربما لا يهتم القانون الروماني ولا حتى قضاته بمشاكل اليهود، أو ربما هو تباطؤ القانون نفسه، الله أعلم. بعد عامين في الإقامة الجبرية، أقف أمام محكمة نيرون الاستئنافية. لقد فُكّت سلاسلي أخيرًا وحظيت ببراءتي. يبدو أن اليهود ملّوا من مطاردتي فسكتت شكواهم ضدي كما أتت تقارير فستوس وأغريبياس وحتى قائد المئة يوليس الذي رافقني حتى روما، كلها إلى صالحي، وهكذا تلقفت حريتي بشغف الروح الجديدة التي تريد أن تنطلق من جديد.

عدت مرة أخرى أجوب البقاع والأصقاع، أزور كنائسي، وأرتب أمورها، وأشرف على هيكليتها وتراتبية المقيمين عليها، وأشد من

---

(1) (1 كو 9: 20).

أزر شعبها بينما كان الاضطهاد يلف الإمبراطورية ضد هذا الصوت الذي كلمني، وأنا في الطريق إلى دمشق.

* * *

"أخذت العربة تهتز اهتزازات عنيفة حتى كدت أقع عنها. ما زلت في عباءة بولس أتمسك بحافتيها محاولة عدم السقوط. أصبحت بوعيين في آن؛ اللحظة الحاضرة وذاكرة الماضي السحيق. إن العربة التي تكاد تنخلع عن سكتها لم تمهلني لكي أهدأ وأستعيد وعيي كاملًا، وإنما أخذت تتحرك بقوة جعلتني أغيب وأذوي مرة أخرى. إن حدة الانطلاق وقرقعة العجلات الصغيرة على السكة لا بد أنها تشير للتحضر من أجل اختراق فترة زمنية جديدة من حياته. لقد وصل خوفي إلى ذروته كأنني أريد ولا أريد، كأنني عارفة ولست بعارفة ما هو القادم! أغمضت عينيَّ وسافرت".

أمام محكمة نيرون، خريف السنة السابعة والستون

أجد نفسي مقيدًا، مرة ثانية،، بالسلاسل. في مستودع القمح الذي كنت أعظ فيه بالقرب من روما، ألقي القبض علي، وتم اقتيادي إلى سجن مامارتينا عند سفوح الكابيتول. إذًا، ما زال البعض يحيك لي شرك الموت من دون كلل أو ملل. إنني مرهقُ تعبُ، فالسجون الرومانية سيئة السمعة ليست نزهة. الكل هنا يحتضر من الظلام والقذارة والإهمال وحتى التعذيب. لم يسمحوا لي بأي من رفاهية الإقامة في منزل منفصل كما فعلوا في المرة الماضية. كنت وحيدًا بكل كهولتي. عرفت من بعض الأصدقاء الذين سمحوا لهم بزيارتي بصعوبة بالغة أن بطرس مقيم في نفس السجن. لم يكن لدي سوى لوقا كاتب رسائلي إلى الكنائس ومدون أفكاري وثيموثاوس صديقي في السراء والضراء والمثابر معي على الشدائد.

إن تكرار الشكوى ضدي جعلت قضيتي تابعة لسلطة محكمة نيرون ذاته، وهكذا كان علي أن أقف أمام القنصل المندوب عن الإمبراطور نفسه. كنت أعزلَ من دون أن يشهد لي أحد، لا محام ولا صديق ولا حتى تقرير يقولون فيه إنني لا أشكل خطرًا على هذه الإمبراطورية العابرة، وكيف يشهدون لي وأنا "اليهودي المارق" الذي يهدد أمن الإمبراطور ذاته! بل حتى إنهم تجرؤوا، واتهموني بأني على علم بحريق روما الكبير، التهمة التي ألصقت بي وبآخرين أمثالي. إنني أعرف ما هي وصفة الموت ضد المهرطقين. أعرف الوصفة الرومانية للموت حيث كل قتل، كل استشهاد، كل اغتيال،

كل تطويب لإله يجب أن يصب في مجد القومية الرومانية. من هو المجرم؟ أنا أم ذاك الجالس على العرش؟ إن عينيَّ لم تبرح ظلك أيها الموت. شبحك لم يتركني لحظة، لا في نومي ولا في يقظتي. تضع قدمك في المكان الذي تتركه قدماي للتو، وإن أنفاسك في كل نفس يخرج من صدري! إن حلبة الموت كانت دائمًا مفتوحة أمامي وجاهزة بوحوشها وكذلك بمن أسميهم أبناء أمتي.

معصوب العينين يقودونني إلى حتفي! أبالسيف سينفذونه أم بالصلب أو حتى برمي الأسود الجائعة علي، سيان عندي! من قال إن شغفي كان من دون مقابل! من قال إنني لست مستعدًا لكي أدفع ثمنه حتى آخر قطرة دم!

إن الدرب إلى موقع تنفيذ الحكم سمح لي بالتأمل والصلاة للمرة الأخيرة. لا، إنها ليست صلاة وإنما هذا أنا أحاكم نفسي قبل أن أسلم الروح. لقد انفجرت ذاكرتي أمام ناظري حتى أدق التفاصيل فيها بانت وانكشفت. إن كل قوة الشمس والقمر مجتمعة لما استطاعت أن تَعبر في هذه الحياة التي عشتها وتبقي على قدرتها! الكنائس التي تأسست، العقيدة التي وضعت أسسها، التنظيم الداخلي لكل مجمع، القوانين والقواعد والمحرمات والمحللات التي امتلأت برسائلي، الجدل مع الإخوة ثم الحرب المستمرة مع اليهود والناموس. إن نبي دمشق كان وراء كل هذا، بينما أنا كنت أمامه! أنا!... أنا بلحمي الحي! لا أريد لهذه الطاحون التأنيبية الشكوكة أن تدور مرة أخرى في عقلي وأنا أتحضر للموت. إن نيتي حسنة. لقد كانت حسنة دائمًا! كنت فقط الزمن الطبيعي لتطور الفكرة الأولى، الكلمة الأولى. كل شيء

يموت على غصنه إذا لم يُغذَّ فيكبر، ويكتمل! كل شيء يتبع دورة الحياة وأولها الفكرة، ونبي دمشق هو الفكرة الأولى التي لا تُرى، ولا تُلمس، ولا تُشم، ولا تملك جسدًا ماديًا. إنه العصي على الوجود والأبدي في نفس الوقت، المرئي والمستتر، المُكتشف بالعقل والغائب عن العين. لو أبقيت نبي دمشق رجلًا في نظر مريديه لمات حين صلب، لكني جعلته أبديًا إذ حولته إلى فكرة لا تذبل؛ وإنما تتنفس في الزمن الطبيعي لتطورها! هذا ما ارتكبته يداي، وإني لمعترف به بسعادة كبرى لا تتناسب مع اللحظات القادمة. أعرف أن هناك الكثير من سوء الفهم سوف يدور حول طبيعة نبي دمشق، الكثير من الجدل والخلاف. ولكن أليس كل ذلك ما يسمح بتطور الفكرة؟ أليس كل هذا هو عمل الزمن الطبيعي لتطورها!

أنا أيضًا الكلمة، أقولها من دون تردد. أنا أيضًا الكلمة التي أخذتها منه ثم عجنتها، وطرزتها وأضفت عليها من فلسفتي الكثير. أنا الذي قلت من دون سفك دم لا تحصل مغفرة. أنا الذي قلت "إِنْ كَانَ صِدْقُ اللهِ قَدِ ازْدَادَ بِكَذِبِي لِمَجْدِهِ، فَلِمَاذَا أُدَانُ أَنَا بَعْدُ كَخَاطِئٍ؟[1]" أنا الذي قلت "صِرْتُ لِلْيَهُودِ كَيَهُودِيٍّ لأَرْبَحَ الْيَهُودَ. وَلِلَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ كَأَنِّي تَحْتَ النَّامُوسِ لأَرْبَحَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ". لكني الآن لست أنا، لست يهوديًا ولا يونانيًا ولا رومانيًا. أنا لست عبدًا ولا حرًا، أنا لست ذكرًا أو أنثى. أنا هو الآن. إنني هو. إنه أنا. إننا واحد. إننا الكلمة.

---

(1) (رو 3: 7).

أوغاريت، الأول من نيسان

"حين هوى السيف على رقبة بولس، وتضرج الجسد بالدماء، خرجت منه في الحال بسبب شدة الألم. إنني أتطلع إليه الآن من علٍ، ضئيلًا ملتفًا حول نفسه، مرميًا في روما بينما الروح معلقة في دمشق، الروح المنطلقة التي طالما سبحت فوق المدن الكثيرة التي زرناها معًا.

إنني أرجف! ما هذا الذي عشته؟ هل كان انحرافًا؟ مؤامرة ضد نبي دمشق، أم ثورة من أجله؟ من دون تردد، سوف أطلق على بولس اسم "القديس الخائن ذو النية الحسنة".

فتحت عينيّ بينما ما زلت واقفة على نفس التلة أتطلع إلى المدينة القديمة الغائرة بين شقائق النعمان. يا الله!... أية رجفة هائلة تعتريني من رأسي حتى أخمص قدمي. أشعر أني سوف أقع على وجهي. إنني أرتجف من هول ما عاينت، فلقد لمست للتو هذا التاريخ الإشكالي بأطراف أصابعي!

يا أيها التاريخ المنافق! لمَ علي أن أثق حتى بنفسي، وأنا أتجول في أزقتك الوعرة، أزقة القِدم المقدسة؟ تُرى، ما هو مرادي الذي قال لي هذا الصوت إنني سألتقيه في رحلتي!! ما هو!

أيقظني من أفكاري سرب كبير من الطيور المهاجرة كانت تعبر فوق سماء أوغاريت. لقد علت أصواتها، وهي مارة فوق حقول البابونج الساحلية، وكأنها تعطي إشارة ما، وفي الحال رأيت

نفسي مرة ثانية في عربتي التي كانت تتحرك باتجاه محطتها التالية.

يا الله! لقد غدوت المغامرة نفسها التي تطارد "مرادًا" قد لا يأتي، وإن أتى فهو ليس "الحقيقة"!

الفهرس

الأول من نيسان، الآن 3
27 ق.م، 16 شباط، روما 9
إلى أورشليم 37
السنة التاسعة والثلاثون 42
السنة الثانية والأربعون 49
ربيع السنة الخامسة والأربعين 57
أيقونية، خريف السنة السادسة والأربعين 69
السنة السادسة والأربعون، ليسترة! 73
على حدود غلاطية 79
إلى أنطاكية من جديد 81
الزوبعة الكبرى 89
المجمع الرسولي، السنة التاسعة والأربعون 91
اللحظة الحاسمة 103
وجهًا لوجه في أنطاكية 106
برنابا، صديقي 110
السنة التاسعة والأربعون (الطريق إلى أوروبا) 112
لا تخف، إننا جميعًا هنا! 124
على صخرة آريوس باغوس 143
إلى سورية 148
المؤامرة 155
ميناء قيصرية، إلى روما 161
من بوابة كابينا 165
أمام محكمة نيرون، خريف السنة السابعة والستون 169
أوغاريت، الأول من نيسان 172